

حمامات مدينة طرابلس الغرب
(دراسة مقارنه)

د. سعدي إبراهيم الدراجي
مركز إحياء التراث/ جامعة بغداد

شهدت طرابلس الغرب بناء ثلاثة حمامات خلال العصر العثماني، وهي قليلة إذا ما قورنت بمثيلاتها من العواصم في الأقاليم الأخرى. وأقدم هذه الحمامات عرف بالحمام الصغير (حمام درغوث) ثم حمام الحلقة والحمام الكبير، والأخير قد أزيل، ولم يبق منه إلا قاعة واحدة أصبحت اليوم جزءاً من السوق الشعبي في المدينة القديمة.

وطبعي أن يرتبط عدد الحمامات في المدينة العربية بكثافة سكانها، فضلا عن ثقافتهم وعاداتهم الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية. إلا أن طرابلس لا تخضع لمثل هذه المعايير التي تنطبق على معظم المدن العربية الإسلامية، لاسيما إذا علمنا أن عدد سكان المدينة مع ضواحيها قد بلغ في نهاية العصر العثماني أكثر من ستين ألف نسمة. ولعل سبب عدم توافق عدد حمامات المدينة مع نسبة سكانها يعود إلى ميل الناس إلى الاستحمام في بيوتهم، مما يفسر لنا خلو أغلب مدن ليبيا في العصر الذي نؤرخ له من الحمامات العامة سواءً كانت تلك المدن ساحلية أم صحراوية.

وساعدت المصادر التاريخية والأدبية في الكشف عن اثر الحمامات في الحياة العامة، بوصفها مؤسسات خدمية فاعلة ساهمت في تطور الاقتصاد وإدامة الحياة في المنشآت الدينية من خلال أوقافها، كما ساهمت في رفد الحياة الفكرية والثقافية والصحية عن طريق مجالس المسامرة والشعر والغناء، أو دور شفاء لمختلف العلل لاسيما الحمامات العلاجية التي تقام على عيون المياه الكبريتية الساخنة. فضلا عن المعلومات الكثيرة التي وردت في كتب الرحالة الأجانب، حيث



حمل بعضها وصفاً مشوقاً لطبيعة الحياة داخل هذه المنشآت وطريقة إدارتها ومنها حمامات النساء في طرابلس.

واقتصرت الدراسة الميدانية على الحمام الصغير، حيث تم وصفه ورفع قياساته وتوثيقه بمخططات وصور، وقد أتاحت الصيانة الأخيرة للباحث مشاهدة الأساليب المستخدمة في بناء الجدران والسقوف الأصلية والأرضيات ومصادر المياه والمواقد ووصفها وتحليل عناصرها. أما المقارنة فقد شملت أمثلة خلصت إلينا من تركيا وإيران والعراق والأندلس والمغرب وتونس ومصر وعرض مخططاتها بغية الوقوف على التأثيرات الوافدة من الخارج.

الحمامات لغة واصطلاحاً:

الحمَام لفظة مشتقة من الحميم([1])، وهو اسم مؤنث لكنه غلظ واصبح التانيث فيه غير مسموع([2]). ويكتب مشدداً([3])، ويجمع بالألف والتاء "حمامات" وان كان مذكراً حين لم يكسر([4]).

وللحمام مرادفات منها الموغر، والديماس([5])، والمستحم([6]). وجميعها تعني المكان الذي يغتسل فيه بالماء الحار، ثم صار كل اغتسال استحماماً بأي ماء كان([7]).

واصطلاحاً بناء مستقل يقام عادة قرب الأسواق أو ضمن حارات السكن، وقد روعي في تخطيطه اتباع القواعد الصحية فقسم إلى ثلاث قاعات رئيسية تتدرج حرارتها من الباردة إلى الدافئة ثم الساخنة، فضلا عن الحجرات والخلاوي الخاصة بالاستحمام يضاف إليها الوحدات

---

[1] - الأزهري، تهذيب اللغـــــة، تحقيق عبد السـلام محمد هارون، الدار المصـرية للتأليف والنشـــر، القاهرة (1964- 1967)، ج 4، ص 15.
ابن سيده، المخصص، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، (د.ت)، السفر التاسع،م 9 ،ص 139.

[2] - الزبيدي، تاج العروس، دار صادر، بيروت(1386هـ-1966م)، م 8 ،ص 260.

[3] - الجوهري، الصحاح، تحقيق احمد عبد الغفار، دار العلم للملايين،ط 2، بيروت(1399هـ-1979م) ج 5، ص 1907.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ، دار صادر، بيروت(1376هـ/ 1956م)، ج 12، ص 153- 154.

[5] - ابن سيده، ص 139.

[6] - الزبيدي، ص 264.

[7] - ابن سيده، ص 139.

الخدمية الأخرى، وقاعات الحمام تسقف بقباب عالية تتخللها نوافذ صغيرة مغشاة بزجاج شفاف يساعد على نفاذ الضوء.

ولفظة حمَام أطلقت على مواضع عدة بعضها في الحجاز والبحرين وافريقية([1])وبعضها الآخر في العراق والأخيرة كانت بمثابة معسكرات لجيوش المسلمين منها حمام أعين المنسوب إلى أعيُن مولى بني وقاص([2]) وكان معروفا في صدر الإسلام وقد عسكرت فيه جيوش الأمويين([3]). وحمام عمر المنسوب إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص، وحمام عمير بن سعيد، وحمام قطن، وحمام جرير، وجميعها مواضع قرب الكوفة([4]).

أما في طرابلس فقد أصبحت اللفظة خلال العصر العثماني مرادفة للفظة العربية "زنزانة" وتعني سجون الأسرى المسيحيين، وقد أطلقها الأسرى الأوروبيون أنفسهم على المنشآت الخاصة بإيوائهم لشدة حرارتها في الصيف وضيق مساحتها وقلة إضاءتها وتهويتها، وكان والي طرابلس صفر داي أول من أقام حماماً للأسرى في عام 1615م عرف بالحمام القديم يستوعب حوالي سبعمائة شخص([5])، ثم استحدثت بعد هذا التاريخ عدة حمامات أخرى نظراً لزيادة عدد الأسرى بسبب تطور الصراع الدائم بين ولاية طرابلس وبعض الدول الأوروبية بقصد السيطرة على مسار الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط والذي دام قرون([6]).

أثر الحمامات في الحياة العامة:

[1] - ياقوت الحموي، معجم البلدان،، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت (1376هـ- 1957م)، م 2، ص 299-298

[2] - البلاذري، فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة (د.ت)، القسم الثاني، ص 345.

[3] - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر(1385هـ ـ 1965م)، م 4، ص 52.

[4] - المصدر نفسه، م 4،ص 233، 293، 404، 495.

[5] - خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة، الدار العربية للكتاب، ط 2، ليبيا – تونس(1985)، ص 97.

[6] -كوستانزيو برنيا، طرابلس من 1510الى 1850، تعريب خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني،طرابلس(1969)،ص 180.



من المعروف أن الحمامات من المنشآت الخدمية التي تسدي للسكان في المدينة الإسلامية منافع مباشرة، وقد كثر إنشاؤها لعوامل عديدة أهمها الحاجة الوظيفية المرتبطة بالنظافة والطهارة. التي حث عليها القرآن في عدة مواضع منها قوله تعالى في سورة الأنفال "ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به...."([1]) أو اتباعاً لسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القائل في باب الطهارة أحاديث كثيرة منها على سبيل المثال "لا تقبلُ صلاةٌ بغير طُهورٍ ولا صدقةٌ من غُلولٍ.... "([2]).

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الحمامات في المدينة الإسلامية هو عدم قدرة العامة جميعاً على تضمين منازلهم حمامات خاصة، فضلا عن إقبال الأغنياء على بنائها بقصد الاستثمار بوصفها مؤسسات تدر على أصحابها أرباحاً وفيرة لدوام الطلب عليها من قبل معظم الناس على اختلاف طبقاتهم([3]). وفي هذا السياق يذكر البلاذري (ت 279 هـ) أن حمام (مسلم بن أبى بكرة) المبني في البصرة خلال العصر الأموي كان يغل في اليوم الواحد ألف درهم([4]). وكذلك المقريزي(ت 845هـ)عندما تحدث عن منشآت الفسطاط في القرن السادس الهجري ذكر حمام (جنادة) في القرافة، الذي ما كان يتوصل إليه إلا بعد عناء من شدة الزحام "وأن قبالتها في كل يوم جمعة خمسمائة درهم"([5]) لذلك لا غرو أن تأتي الحمامات على رأس المنشآت الخدمية التي تحبس على المباني الدينية والمدنية المبنية لإدامة بقائها سعيا للخير والثواب- كالمساجد والربط والزوايا والمدارس والبيمارستانات والأسبلة- التي يتطلب إنشاؤها واستمرارها أوقافا كثيرة

---

[1] - سورة الأنفال، جزء من الآية-11.

[2] - الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت(1419هـ- 1999م) ج 1، ص 204.

الألباني، صحيح سنن ابن ماجة، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض(1407هـ-1986م)ج 1، ص 51.

[3] - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 246.

[4] - البلاذري، فتوح البلدان، ص 434.

[5] - المقريزي، الخطط، ج 1، ص 330.



تدر ريعاً يصرف منه على أصحاب الوظائف بها وعلى ترميمها وتجهيزها أو إعادة تعميرها([1]).

ولا شك أن ارتفاع قيمة ضمان الحمامات يدل على انتعاش موارد هذه المنشآت ويعكس في الوقت نفسه ارتفاع أجورها وفخامة بنائها ونظافتها، كما أنه يفصح عن طبيعة الحياة الاقتصادية للمدينة أو الدولة ومقدار نسبة دخول الأفراد فيها لحقبة تاريخية معينة، فالمقريزي استعرض أوقاف المدرسة الناصرية التي اكتمل إنشاؤها سنة (703هـ-1303م) وكان من بينها حماما (الشيخ خضر) أحدهما للرجال والآخر للنساء وموضعهما بظاهر القاهرة وأجرتهما في كل شهر خمسون وخمسمائة وألف درهم([2])، وهو بلا ريب ريع منخفض إذا ما قورن بواردات حمامي مسلم بن أبى بكرة أو جنادة السالف ذكرهما.

ومن الطبعي أن تكون الأجور في بعض الحمامات مناسبة لاسيما القديمة منها، أو تكون منخفضة الأجور بسبب تواضع خدماتها وانعدام سبل الراحة فيها؛ وبصورة عامه فإن أجور الاستحمام في الحمامات العامة تحددها أمور كثيرة منها الفخامة والشهرة والنظافة، فضلا عن مقدار الضريبة التي تفرضها الدولة والتي تكون مرتفعة جداً في بعض الأحيان. وبهذا الخصوص تحدث الرحالة الإنكليزي جون فرنسيس ليون عن الأجرة في حمامات طرابلس الغرب عام 1819م وكانت تعادل ما قيمته خمسة بنسات وهو مبلغ كبير نسبيا إذ لم تشمل الأجرة ثمن الصابون([3]).

[1] - محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مطبعة الرسالة، الكويت(1988م) ص 83.

[2] - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (1939)، ج 1، ق 3، ص 1049.

[3] - جون فرانسيس ليون، من طرابلس ألي فزان مذكرات الرحالة الإنكليزي جون فرانسيس ليون 1818، نقله إلى العربية مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس(1396-1976)،ص 17.

اشتهرت تونس بصناعة الصابون على مر العصور حيث كانت الدولة الحفصية تتولى صنعه وبيعه وتعاقب من يصنعه من الشعب بالسجن والغرامة حتى جاء أبو غارس عبد العزيز الذي ألغى احتكار الصابون وأباح للناس صنعه وجعله حراً. محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس (1974) ص 182. وتذكر الأنسه توللي في إحدى رسائلها المؤرخة عام 1792م إن الصابون لا يصنع في طرابلس بل يجلب في جرار من تونس، على الرغم من توافر النباتات الخاصة بصناعته، ومن اجل ذلك تصرف



وهناك عوامل أخرى ساعدت على انتشار الحمامات في المدينة العربية الإسلامية، منها اهتمام أصحاب السلطة بها، إذ تذكر المصادر أن عددا من الحمامات قد شيد بأمر الخلفاء والسلاطين والولاة والقضاة، مثل حمامي أحمد ابن طولون(254-270هـ) الملحقين بمارستانه بالعسكر([1]) وحمام (الصوفية) الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي(567-589هـ) في القاهرة([2]) وحمام (قتال السبع) الذي اشتراه الأمير قوصون وأعاد بناءَهُ من جديد بعد أن حل أحد قضاة القاهرة وقفيته القديمة بحجة أنه خَرِبة وآيل إلى السقوط بناءً على شهادة الشهود([3])، كما بنى قوصون سنة 736هـ حماما آخر بجوار جامعه الكائن بباب القرافة([4])، وبنى الأمير بشتاك (ت 742هـ) الذي تقلد عدة وظائف في عهد الناصر محمد بن قلاوون منشات في القاهرة من بينها حمام بسوق السلاح([5])، وكان الملك المؤيد شيخ (ت 824هـ) مغرماً في العمارة فأنشأ في مصر والشام مبان كثيرة لم يبق منها في القاهرة سوى بقايا سبيل ومصلى في القلعة والبيمارستان بالمحجر والحمام بشارع تحت الربع فضلا عن مسجده الشهير([6]) وأنشأ السلطان قايتباي في الشام عدة منشآت منها حماماً متميزاً استحم به السلطان العثماني سليم عند احتلاله دمشق سنة 922هـ([7]). وفي عام 906هـ شهدت دمشق بناء حمامين جديدين

مبالغ هائلة سنوياً ثمناً للصابون المستهلك. ريبشارد توللي، عشرة أعوام في طرابلس، ترجمة عبد الجليل الطاهر، دار ليبا للنشر والتوزيع، بنغازي(1967)، ص 454.

وقلة إنتاج الصابون في ايالة طرابلس في العصر القرمانلي لا يمنع من تصديره إلى الخارج فالدعاوى التي تزخر بها سجلات محكمة طرابلس الشرعية، تؤكد أن الصابون من بين السلع التي كانت تصدر عن طريق البحر إلى الإسكندرية، ومنها على سبيل المثال دعوى مؤرخة عام 1175هـ(1761م) يطالب فيها صاحبها بحقه في بضائع مشحونة إلى الإسكندرية ومن بينها خمسة خوابي صابون. محمد عمر مروان، سجلات محكمة طرابلس الشرعية، دراسة في مصدر تاريخي، منشورات مركز الجهاد، طرابلس(2003م)، ص 331. ويبدو إن الأمر في العصر الثاني قد تغير حيث تشير بعض المصادر إلى وجود أربعة مصانع للصابون في طرابلس كانت تنتج 180 طناً في العام. محمد ناجي، ومحمد نوري، طرابلس الغرب، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان، دار مكتبة الفكر، طرابلس(1973م)، ص 39.

[1] - المقريزي، الخطط، ج 2،ص 405.

[2] -المصدر نفسه، ج 2، ص 85.

[3] - المقريزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص 321.

[4] - المصدر نفسه، ص 390.

[5] - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، أوراق شرقية، ط 2، بيروت(1993م)، م 1، ص 143.

[6] - المرجع نفسه، ص 207.

[7] - ابن طولون، المصدر السابق، ج 2، ص 32.



بقصد الاستثمار وقد فرغ منهما سريعاً، أحدهما لقاضي الشافعية والآخر لزوجة تقي الدين قاضي عجلون([1])، وفي 25 شوال عام 908هـ فرغ من بناء الحمام الذي شرع قاضي الحنفية محب الدين بن قصيف في بنائه بدمشق([2])، ومن الحمامات المشيدة بأمر الولاة في طرابلس (الحمام الصغير) وقد بني في مطلع القرن السابع عشر ليكون وقفا على سور المدينة وتحصيناتها الدفاعية. وكذلك(الحمام الكبير) الذي بناه عثمان باشا الساقزلي سنة 1069هـ وجعله وقفاً على مدرسته، وحمام (الحلقة) المعروف بحمام شيخ البلد([3]) نسبة إلى مالكه (علي القرقني) الذي كان يشغل هذا المنصب في العصر العثماني الثاني([4]). ولم يقتصر بناء الحمامات على الحكام والتجار فحسب بل تعداه إلى العلماء ومنهم على سبيل المثال خالد بن يزيد الناهض في الطب والبارع في صناعة الأدوية، وقد شيد حماما بجانب داره بقرطبة وكان كاسبا في الأموال والعقار([5]). والحقيقة ليس القصد من ذكر هذه الأمثلة الإتيان على كل الحمامات التي شيّدها أهل السلطة في المدينة العربية الإسلامية لأنها جدُ كثيرة، إنما القصد منها هو البرهان على أهمية الموضوع .

وإذا كانت مصادرنا العربية لا تتحدث بإسهاب عن الحمامات وقت الرخاء فأنها كثيراً ما تتحدث عنها وقت البلاء، لاسيما عند ذكر الحروب والكوارث الطبيعية كالحرائق والفيضانات، أو ما تهدم منها بفعل فاعل ومنها على سبيل المثال حمام (الملك السعيد) الواقع بظاهر باب النصر،

---

[1] - المصدر نفسه، ج 1، ص 243.

[2] - المصدر نفسه، ج 1 ، ص 265.

[3]- لم يكن نظام البلديات في العصر القرمانلي (1711-1835م) معروفاً، بل كان هناك مجلس استشاري يرأسه شخص معين من قبل الوالي أو الأمير يدعى (شيخ البلد)، من مهامه الأشراف على النظافة ومراقبة الأسواق والاتصال بأبناء الصناعات والحرف المختلفة وجباية الرسوم، ويمارس في الوقت نفسه سلطان الأمن للمحافظة على التقاليد والحريات الإسلامية، وأحيانا يكون بمثابة حاكم الصلح في القضايا التجارية البسيطة، ويتقاضى شيخ البلد مرتبه من خزينة الولاية ويعمل تحت إشراف الوالي مباشرة، علما بأن نظام المشيخة استحدثه العثمانيون في ليبيا بعد سيطرتهم عام 1551م.

بلدية طرابلس في مائة عام 1286- 1391هـ/ 1870- 1970م، شركة دار الطباعة الحديثة، طرابلس (1972)، ص 29.

[4] - سوف نأتي على ذكر حمامات طرابلس وتاريخها مفصلا.

[5] - ابن جُلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة (1955م)، ص 96.



ولم يكن في دمشق أحسن منه، خرّبه السلطان الملك الأشرف الخليل بن المنصور قلاوون عام 670هـ([1]). وقد أتى ابن طولون (ت 953هـ) على ذكر حمامات دمشق القائمة منها والمزالة بأمر السلاطين والحكام وأهمها حمام (الصحن) الذي يقع شرقي الجامع الأموي حيث هدم في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وأصبح بيتاً لكبار القوم([2])، وفي عام 895هـ نقض حمام (الزين) وما حوله بعد أن كشف عنه قاضي الشافعية، وكان له ذكر في التاريخ لأنه من الحمامات القديمة في دمشق ويقع بدرب الحجر شرقي كنيسة مريم([3])، وعندما همّ السلطان سليم بتعمير ضريح المحيوي بن العربي طلع في 2 شوال عام 923هـ ليرى ما هندس من العمارة، فأمر بشراء حمام (الجورة) من ناظره بمائة دينار ليوسع به وكان لصيق التربة ووقف عليها([4]). وفي عام 926م أزال نائب دمشق حمام (تنكز) وجعله بستاناً([5])، وهو حمام قديم كان معروفاً بدمشق أنشأه الأمير تنكز اتجاه جامعه وافتتحه في يوم الخميس الموافق التاسع عشر من جماد الآخر عام 721هـ "واكري في كل يوم بأربعين درهماً لحسنه وكثرة ضوئه ورخامه"([6]). وأحيانا نتعرف على حمامات المدينة من خلال ذكر الكوارث الطبيعية كالحرائق والفيضانات، ففي التاسع من محرم عام 735هـ شهدت حمص سيل عظيم غرق بسببه خلق كثير ولحق بالناس ضررٌ عظيم، إذ "مات نحو مائتي امرأة بحمام النائب، كن مجتمعات على عروس أو عروسين فهلكن جميعاً"([7]) وفي شتاء عام 896هـ تواترت الأمطار على دمشق في

---

[1] - ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، مكتبة المعارف، بيروت و مكتبة النصر، الرياض،(1966م)، ج 13، ص 323.

[2] - ابن طولون، شمس الدين محمد (ت 953هـ)، فكاهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة(1348هـ-1964م)، ج 1، ص 84.

[3] - المصدر نفسه، ج 1، ص 131.

[4] - المصدر نفسه، ج 2، ص 70.

[5] - المصدر نفسه،ج 2، ص 100.

[6] - ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج 14 ص 99.

[7] - المصدر نفسه، ج 14،ص 156.

الليل والنهار فغرقت معظم منشآت المدينة أو تضررت ومنها حمام (كفر سوسيا) وحمام (الكحال) وقد بلغ الماء في الأخير حد مصاطبه([1]).

والحمامات عرضة للضرر أثناء الحروب فالتاجر حسن (ت 1284هـ) في يومياته يحصي الإصابات والأضرار التي لحقت بالأبنية من جراء الفتنة التي أدت إلى حرب أهلية عمت طرابلس الغرب في منتصف القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، وقد قامت الحرب بين جهتين كلاهما مزود بالمدافع مما أدى إلى هلاك بعض الناس داخل المدينة وضرر بعض أبنيتها، ومن جملة الأبنية المتضررة الحمام الصغير وقبة الحمام الكبير([2])

وبشأن الوظيفة فلم تكن الحمامات مخصصة للاغتسال والنظافة فقط بل تعدتهما إلى الراحة والاستجمام والشعور ببهجة الحياة، فهي ملتقى الناس على اختلاف ثقافاتهم سواء أكانوا من أهل المدينة أم غرباء يقضون فيها بعض الأوقات يتبادلون خلالها الأحاديث ويتناقلون الأخبار والأشعار، ويسمعون من بعض روادها الطرائف والفكاهات([3]) شأنها في ذلك شأن الخانات التي تأوي المسافرين وتقوم على خدمتهم؛ ولعل من أسباب تعلق أهل الأندلس بالاستحمام هو أن الحمام عندهم أصبح مركزاً للاجتماعات المرحة والأنس واللهو والغناء، تتكسر فيه أغلال التقاليد ويتنفس فيه الرجال والنساء معنى الحرية، وربما لهذا السبب كان شعراء الأندلس كثيراً ما يذكرون الحمام في أشعارهم وقد عبر أحدهم عن ذلك بقوله:

ومنزل أقوام إذا ما تقابلوا   تشابه فيه وغده

ورئيسه

---

[1] - ابن طولون، المصدر السابق،ج 1، ص 136، 138.

[2] - حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق عمار جحيدر، مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب(2001) ج 2، ص 102، 169، 548، 610، 683، 687، 773، 774.

[3] - الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، ط 2، بغداد(1386-1966)، ص 189.



ينفس كربي إذ ينفس كربه ويعظم أنسي إذ يقل أنيسه([1])

وقال أبا جعفر بن هريرة التطيلي المعروف بالأعمى الشاعر في وصف إحدى الحمامات الأندلسية :

يا حسن حمامنا وبهجته مرأى من السحر كله حسن

ماء ونار حـواهما كنفٌ كالقلب فيه السرور والحزنُ([2])

وعرفت الحمامات كدور شفاء لمختلف الأمراض والعلل، لاسيما العلاجية منها التي توظف في استغلال المياه الكبريتية الساخنة لعلاج الأمراض الجلدية وأشهرها حمامات بورصة في تركيا وحمامات المجر ودول البلقان([3]). أما في ليبيا فلم يقتصر وجودها على المناطق الصحراوية البعيدة وبعض الواحات في فزان، كهون وزلّة وسوكنة وغات ومنطقة شويرف وجبل الحساونة ووادي بي...... فحسب بل تعداها إلى المناطق القريبة مثل تاجوراء والعجيلات والعسه وزمزم. ومعظمها عيون تفتقر إلى النظافة والخدمات، لهذا لا غرو أن تتجه أنظار الطرابلسيين في العصر العثماني إلى دول الجوار ، وأقربها تونس المعروفة بحماماتها العلاجية منذ القدم. حيث تشير الوثائق المحلية إلى سفر بعض الشخصيات الطرابلسية أو ممن كانت لهم مكانة اجتماعية أو مناصب إدارية وسياسية في العصر القرمانلي(1711-1835م) فضلا عن الموسرين، إلى حمامات تونس بقصد العلاج. ففي شهر ذي الحجة من عام 1248هـ(1832م) سافر رئيس البحرية قاصداً حمام (الأنف)

---

[1] - السيد عبد العزيز سالم،تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية (1985م) ص 209.

[2] - المرجع نفسه، ص 209-210.

[3] - فاروق أحمد شعبان، عمارة حمام ضرغوث بطرابلس ليبيا بين الأسس الهندسية والجمالية، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة العاشرة (1988و)، ص 156.



القريب من العاصمة تونس([1])،وكانت "عيونه تعرف بالحمة لشدة سخونتها، وهي موصوفة بإبراء ذوي العاهات، يطلبون الجلوس على مائها للتداوي"([2]) وفي السنة التالية سافر شيخ البلد إلى الحمام نفسه بقصد العلاج أيضا([3]). وتذكر الوثائق حمام آخر كان يؤمّه الليبيون في هذا العصر للعلاج هو حمام (قربص) وقد وصف بأنه فيه عيون ماء كثيرة تميزت بمفعولها الصحي([4]).

ولم تكن الحمامات في المدينة الإسلامية حكراً على العامة والفقراء، بل تعدتهما إلى السلاطين والأمراء والمسؤولين في الدولة، طمعا بالشفاء من سقم أو على إثر العودة من سفرٍ، كما فعل آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد عند زيارته للموصل([5])، أو كما فعل الأمير أسامة بن منقذ (ت 584هـ) وكان كثير السفر يتنقل بين مدن الشام، فلما وصل صور دخل مع غلمانه أحد حماماتها بقصد الراحة والنظافة([6]). وكذلك كان يفعل أمراء المماليك في الشام أو ضيوفهم القادمين من بلدان أخرى ومنهم الأمير محمد بن جم بن السلطان مراد بن محمد بن عثمان الذي أتى حلب بعد موافقة قايتباي عام 886هـ، وكان فاراً من أخيه السلطان بايزيد، ثم سافر إلى دمشق وبرفقته مائة شخص، حيث أستُقبل هناك بمراسيم مهيبة بعدها توجه إلى حمام (الحاجب) بصالحيتها([7]). ومن الحمامات التي كانت تستقطب المسؤليين في دمشق حمام (القاضي الشافعي الجديد) المبني عام 906هـ([8])، وقد

---

[1]- حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، ج 2 ،ص 278.
[2] - الوزير السّراج ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب السهيله دار المغرب الإسلامي، بيروت (1985) ، م 1، ص 548.
[3] - حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، ج 2، ص 330.
[4] - المصدر نفسه ،ج 2، ص 332، 340، 345، 791.
[5] - الازدي، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه، القاهرة (1387هـ-1967م)ج 2، ص 75.
[6] - أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق فليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة،(1930) ص 137.
[7] - ابن طولون، فكاهة الخلان في حوادث الزمان،ق 1، ص 43
[8] - المصدر نفسه، ق 1، ص 243.



زاره نائب دمشق في السنة التالية، وضيافته في هذا الحمام كانت هائلة([1]).

وفي يوم السبت مستهل رمضان عام 922هـ أحتل العثمانيون دمشق بقيادة السلطان سليم خان الذي جاءها على رأس جيش كبير لا قبل للمماليك بصده فسلمت له مفاتيح المدينة دونما قتال، وقد سجل ذلك شاهد عيان من أهل دمشق الأحداث اليومية التي شهدتها المدينة خلال الاحتلال وتابع أفعال السلطان، ومن ضمنها دخوله حمام (الحموي) ([2]) الكائن بعمارة قايتباي، وكان ذلك يوم الخميس الموافق السادس من شهر رمضان ـ أي بعد وصوله دمشق بستة أيام ـ وبرفقته موكب عظيم يضم حراسه ومماليكه وعسكره. وقد وصف السلطان سليم بالكرم والسخاء حيث أعطى لمن حلق له لحيته خمسمائة درهم ومثلها لمعلم الحمام([3]).

ولاشك إن أصحاب السلطة كانوا على اختلاف مراتبهم يرتادون الحمامات المتميزة بفخامة بنائها وجليل خدماتها، وهم يعاملون فيها معاملة خاصة احتراماً لمكانتهم الاجتماعية ومراكزهم الإداربة أو طمعاً بعطائهم، وفي هذا السياق يصف المقريزي دخول صاحب الخراج بمصر أبى زنبور الماذرائي (ت 317هـ) في عهد الدولة الطولونية حمام (حمدويه) وكيف أعد له صاحب الحمام عند خروجه بغلة مسروجة ملجمة وهو آخذ بركابها، وعدد من الغلمان يحملون مدخنة وماء ورد وغالية ومشط ومرآة([4]). فإذا كان الأمر هكذا مع صاحب الخراج فكيف يكون الأمر إذن مع الخلفاء والسلاطين والوزراء ؟.

---

[1] - المصدر نفسه، ق 1، ص 253.

[2] - حمام الحموي: من أحسن حمامات دمشق وينسب إلى الأمير عز الدين أيبك الحموي، الذي انشأه بمسجد القصب وقد كملت عمارته في شوال عام 694هـ. ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج 13، ص 339، ج 14، ص 30.

[3] - ابن طولون، المصدر السابق، ق 2، ص 32.

[4] - المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (1411- 1991)،ج 3، ص 469.



وطالما شهدت الحمامات حوادث سرقات بعضها اختص بالملابس والمناشف والأحذية والبعض الآخر اختص بالنقود، وهو أمر طبيعي لأن الحمامات أماكن عامة معدة لاستقبال الزبائن من كل الأطياف، سواء أكانوا من سكان الحي أم طارئين من الأرياف أم غرباء من مدن وأقاليم بعيدة؛ ولعل أطرف ما قيل عن السرقة في الحمامات العامة هو ما ذكره الشاعر محمد ابن سكرة، الذي دخل حمام بن موسى في دمشق فسُرق مداسه فخرج منه حافياً فتذكر الزاهد الكبير (بشر الحافي) وقال في ذلك أبيات ظراف:

إليك أذم حمام ابن موســى وإن فاق المنـى طيباً وحرا

تكاثرت اللصوص عليه حتى ليحفى من يطيف به ويعرى

ولم أفقد به ثوباً.... ولكـن دخلت "محمداً" فخرجت "بشرا"([1])

ولم تكن حمامات النساء في منأى عن السرقة بل هي في ذلك أدهى وأمر، فالسرقات فيها طالت جميع الحاجات التي تعودت النساء أن يحملنها إلى الحمام، كالملابس والأحذية وأدوات الزينة والعطور، ومن هنا نشأت عادة إيداع الأشياء الثمينة لدى المسؤول عن إدارة الحمام (معلم أو معلمة) ومنها النقود والحلي، لتحفظ في صندوق خاص(خزنة) فيه أدراج محكمة بأقفال وعليها أرقام يستطيع الحمامي بواسطتها معرفة أصحاب الأمانات على وجه الدقة. ففي السابع من شهر رمضان عام 746هـ قطعت يد امرأة في باب زويلة بالقاهرة بعد

[1] - محمد عبد الغني حسن، ملامح من المجتمع العربي، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر(1951م) ص 85.



أن ضربت على ساقيها بالمقارع لسرقتها بعض الحاجات من حمام (الأدميري)([1]).

والسرقة في حمامات النساء تتعدى أحيانا اللوازم والحاجات إلى الأطفال حديثي الولادة أو تبديلهم، حيث جرت العادة في معظم المجتمعات العربية أن تؤخذ النفساء مع رضيعها إلى الحمام بعد أيام من ولادتها كي يدهن جسمها بمزيج يستحضر من بعض الأعشاب والنباتات الطبيعية، وتعرق على دكة بيت النار كنوع من العلاج بقصد إعانتها على استرداد عافيتها وزيادة حليبها. أما الأطفال فيكونوا عادة في الحجرة الدافئة لعدم قدرتهم على تحمل الحرارة، وهنا تتحين بعض النساء الفرص لتبديل وليدتها بذكر ثم تخرج. ليس هذا فقط بل في بعض الأوقات تجد المعلمة نفسها أمام أمر اصعب حين تترك لها إحدى الأمهات وليدها أو ابنتها هروبا من العار أو خوفا من الأهل أو المجتمع([2]).

والحمامات أيضا عرضة لعمليات النصب والاحتيال، فابن طولون يصف في حوادث شهر جمادى الأولى من عام 895هـ أحوال مدينة دمشق بعدما دخلها عسكر المماليك المصرية وكيف عمت الفوضى والزحام في شوارعها فتخوف الناس فلزموا منازلهم وأغلقت المحال التجارية. أما حمامات المدينة فبقيت أبوابها مشرعة تستقبل من يروم النظافة والاغتسال ومنها حمام منصور الذي دخله مملوك "فأمر الصانع أن يحلق رأسه ويدلّكه ويغسله وأطال المكث، ثم خرج فادعى انه بجيبه مائة دينار سرقت، فلم يزل بالحاضرين حتى أخذ منهم ثلثمائة(كذا) درهم...."([3]).

وفي الأندلس اتخذت بعض الحمامات مسرحاً للجرائم السياسية والغدر، فقد احتال صاحب اشبيلية المعتضد بالله بن عباد سنة 445هـ/ 1053م على طائفة من رؤساء أعدائه البربر حتى زاروه ومعهم مئتا

---

[1] - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2، ق 3، ص 692.
[2] - منير كيال، الحمامات الدمشقية وتقاليدها، دمشق، 1966، ص 215.
[3] - ابن طولون، المصدر السابق، ق 1، ص 120.



فارس منتخبين خرجوا بأحسن زي وأجمل مَرْأى قد ركبوا الخيول المسومة وتقلدوا السيوف المحلاة فأكرمهم ثم قبض عليهم وسجنهم في حمام (الرقاقين) حتى هلكوا جميعاً([1]).

وتُهيّأ حماماتُ المدينة لاستقبال الجيوش إثر عودتها من المهام الرسمية، وأحيانا تُهيّأ لاستقبال الجيوش الصديقة قبيل وصولها، كما هو الحال في حمامات طرابلس التي أعدت للجيش العثماني الذي أبحر في 14 مايو عام 1835م بأسطول تركي مكون من اثنتين وعشرين سفينة إلى ميناء طرابلس([2]). وكان (علي الثاني) آخر أمراء السلالة القرمانلية قد نظم حملة لتنظيف شوارع المدينة وأوعز إلى وكيل الأحباس فيها بصيانة وترميم الحمام الكبير والحمام الصغير ظناً منه أن الجيش العثماني جاء لنصرته لا لاعتقاله وعزله([3]).

وفيما أعلم لا توجد في المدينة العربية الإسلامية حمامات تخص الجيش، أي حمامات عسكرية عامة. كما فعل الرومان في بصرى مثلا، وفيها حمامان عامان أحدهما يقع جنوب قوس النصر والآخر شماله قرب المعسكر، مما يدعو للاعتقاد بأن أحدهما للسكان والآخر للجنود([4]).

وتلحق الحمامات أحيانا بالمنشآت الدينية والخدمية، لاسيما المشيدة من أجل البر والتقوى، وأقدمها حّماما ابن طولون الملحقان بمارستانه المبني في مصر سنة 261هـ وكان أحدهما للرجال والأخر

---

[1] - ابن عذاري المراكشي، البيان المغُرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 3، ص 295.

[2] - كاكيا، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني 1835-1911، دار الفرجاني، طرابلس (1395-1975م)، ص 27.

[3] - حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، ج 2، ص 638.

مما يفيد ذكره، أن أوامر والي طرابلس علي القرمانلي قد صدرت في يوم الجمعة الموافق 18 ذي الحجة عام 1250هـ أي قبل وصول الجيش العثماني إلى طرابلس بخمسة شهور تقريبا. واليومية نصها: وقع تنبيه من سيدنا- دام عزه- ونادى مشايخ الشوارع، ونبهّ عليهم أن يجعلوا خدّامة(كذا) وحمير في كل شارع ويحولوا جميع الردم والزبل الذي في الشوارع، وكذلك وقف الحاج إسماعيل وكيل الاحباس بأنه يبنوا الجوز(كذا) حمامات".

[4] - منير كيال، المرجع السابق، ص 6.



للنساء، ويذكر المقريزي أن ابن طولون قد حبس عليه بجانب الحمامين مبان كثيرة وشرط أن لا يعالج فيه جندي ولا مملوك([1]).

وفي العصر الفاطمي أعدت بعض الحمامات لدار الوزارة كحمام (تتر) الذي بقي قائماً بخط دار الوزارة الكبرى بالقاهرة حتى القرن التاسع الهجري، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى أحد مماليك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي استولى عليه بعد سقوط الدولة الفاطمية([2]).

وخصصت بعض حمامات القاهرة في العصر الأيوبي للصوفية، لذلك فهي تعرف بهم كحمام (الصوفية) الذي كان قائماً بجوار الخانقاه الصلاحي، وقد أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي لصوفية الخانقاه واشترط أن لا يدخله يهودي ولا نصراني، وقد بقي هذا الحمام إلى عهد المقريزي (ت 845هـ) ريعه جاري في أوقافهم([3]). ـ والقرار الذي اتخذه صلاح الدين يذكرنا بقرار الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي منع أهل الذمة من دخول الحمامات العامة في عاصمته سامراء ـ([4]).

وألحقت ببعض المجموعات الدينية الضخمة حمامات خصصت لخدمة أهلها والعامة، كحمام(شيخو) وحمام (المؤيد شيخ) بالقاهرة([5]). وحمام الأمير (قوصون) الذي بناه عام 736هـ بجوار جامعه الكائن داخل باب القرافة([6]).أما المجموعات التي تخلو من هذه الخدمة فيصرف إلى

---

[1] - المقريزي، الخطط، ج 2، ص 405.
[2] - المصدر نفسه، ج 2، ص 80.
[3] - المصدر نفسه، ج 2، ، ص 85.
[4] - نظمي زاده مرتضي، كلشن خلفا، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس، النجف(1971م)،ص 58.
يذكر ابن كثير(ت 774هـ) في حوادث سنة 755هـ وكذلك في حوادث سنة 765هـ، انه صدر في دمشق قرار يلزم أهل الذمة بتصغير العمائم ومنعهم من ركوب الخيول أو البغال واقتصار ركوبهم على الحمير، وان يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات أجراس، أو خاتم نحاس أصفر، أو رصاص، ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمامات، وليكن لهن حمامات خاصة، وأن يكون أزار النصرانية من كتان أزرق، واليهودية من كتان أصفر وأن يكون أحد النعلين أسود مخالفا للون الآخر.... ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ،ج 14،ص 250و 305
[5] - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 247.
[6] - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج 2، ق 1، ص 390.



طلابها مخصصات شهرية للاستحمام بالحمامات العامة. وقد يثبت ذلك في وثيقة الوقف كما فعل الناصر محمد بن قلاوون([1]).

وليس غريباً أن يكون الحمام مأوى لسكن العاملين فيه كالوقاد أو الزبال لمراقبة نيرانه عن كثب، لكن الغريب أن تصبح بعض الحمامات ملجأ لسكن الفقراء والمجذوبين ومنهم الشيخ يوسف الإقميني الذي أرخ لوفاته ابن كثير وكان يعرف بهذا اللقب لأنه كان يسكن إقمين حمام (نور الدين الشهيد) في دمشق، وقد مات عام 657هـ ودفن بتربته في سفح قاسيون([2]).

وعلى الرغـم من كراهية الفقهاء وتشـددهم في حكـم دخول المرأة الحمـام بمسـوغ " سد باب الذريعة إلى المفاسد"([3])، إلا أن ذلك لم يمنع المرأة في المدينة العربية الإسلامية من ارتياد الحمامات العامة واتخاذها أماكن للتزين والتجميل وقص الشعر أو تسريحه، فضلا عن النظافة. والحقيقة أن أجمل المشاهد التي صورت المرأة في الحمامات العامة، وصلتنا من المنمنمات الإيرانية، حيث صور الفنان قاسم علي سنة 899هـ في مخطوط المنظومات الخمسة المحفوظة بالمتحف البريطاني صورة جميلة تمثل عدداً من النسوة يستحمّن في بركة حمام وهن يمزحن ويتجاذبن النزول إلى الماء، تطربهن عازفة تعزف الأنغام على عود. ولجعل الصورة أكثر حركة وإثارة رسم الفنان عينا غريبة ترقبهن خلسة من كوتي شرفة، وزين المكان ببعض الأشجار والزهور([4]).(الصورة -1) كما كان لحمامات الرجال نصيب في المنمنمات الإسلامية أيضا، حيث تظهر صورة أخرى مختلف الفعاليات التي تمارس عادة في الحمام كالتدليك والحلاقة ونشر المناشف أو

---

[1] - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 247، 286.

[2] - ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج 13، ص 216، 298.

[3] - ابن الحاج، المدخل، المطبعة المصرية، مصر (1348هـ/1929م) ج 2، ص 44.

[4] - زكي محمد حسن، التصوير في الإسلام عند الفرس، دار الرائد العربي، بيروت (1401-1981)، ص 53-54، اللوحة 29، الشكل 28.



تعليق المآزر(الصورة -2). وقد خلصت إلينا مجموعة من أدوات الاستحمام محفوظة بعدة متاحف (الصورة - 3).

والحمامات منذ العصر الروماني عرضة للرسم والزينة فأرضياتها تكسى عادة بالفسيفساء أو الرخام وجدرانها تُحلّى بصور نساء ومناظر جميلة تنفذ بالألوان المائية مثل الحمام الفاطمي المكتشف سنة 1932م في جهة أبى السعود في جنوب القاهرة([1]). وأحيانا تزين بتماثيل كحمام (أبى مره) بمصر وهو مخصص للنساء ويعرف بحمام زبَان نسبة إلى مالكه زبَان بن عبد العزيز، وكان به تمثال كسر مع سائر التماثيل بأمر يزيد بن عبد الملك سنة 104هـ، وله يقول كريب بن مخلد الجيشاني:

من كان في نفسه للبيض منزلةٌ فليأت أبيض في حمام زبِان([2])

وربما ساهمت التماثيل المنزوعة من المدن القديمة في تجميل الحمامات فالمقري (ت 1041هـ) ذكر أنه عثر في أطلال طالقة الرومانية على تمثال جارية من المرمر تحتضن صبيا وتنظر في ذعر إلى أفعى تقترب من ولدها، وقد وضع هذا التمثال في حمام (الشطارة) باشبيلية ، وفيه يقول أبو تمام غالب بن رحاب الحجام:

ودميةُ مَرْمرٍ تُزهى بجيدٍ تناهى في التَوردُ والبياض

لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض

ونعلم أنها حجرٌ، ولكن تتيمَنُا بألحــاظٍ مِراض([3])

---

[1] - المرجع نفسه، ص 21، لوح 1.

[2] - الكندي، الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت (1908م)،ص 72.

[3] - المقري، أحمد بن محمد التلمساني(ت 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت (1388هـ/1968م)، ج 2، ص 73.
السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 213.



ولا شك أن بقاء قسم كبير من الحمامات في المدن الإسلامية يعكس صور من مظاهر الحياة العامة في مختلف العصور، سواء تلك المشاهد التي أسبغتها روح القداسة المرتبطة بالعقيدة أم الموصولة بالعادات والتقاليد، وهي جزء من الموروث الشعبي.

وظيفة الحمامات وطريقة إدارتها:

لدينا معلومات كافية عن الحمامات في مختلف المدن العربية الإسلامية وكيفية إدارتها ومنها طرابلس الغرب، وأفضل المعلومات التي تحكي عن طبيعة الحياة في هذه المنشآت الخدمية الفعالة تنحصر بمذكرات الرحالة الأجانب، فعلى سبيل الفائدة خلص إلينا وصفا عن فعاليات النساء داخل الحمامات العامة، كتبته الإنكليزية ريتشارد توللي التي مكثت في طرابلس عشر سنوات (1783-1793م) وصورت خلالها الحياة الاجتماعية، وخصت المرأة الطرابلسية بملاحظات تنم عن الشفافية المفعمة بصدق الكلمة والدقة العالية التي كانت تتمتع بها هذه الرحالة. ولحسن الحظ أتيح لتوللي زيارة سرايا القرمانلية عدة مرات لتكتب لنا عن عادات نسائه وتصف جانبا من لباسهن وزينتهن وتقاليدهن، كما لم يفتها دخول أحد الحمامات المخصصة للنساء في طرابلس، وقد سجلت ما شاهدته بالداخل بقولها: "تزدحم الحمامات الكبيرة المشيدة من الرخام بالسيدات في كل ساعة من ساعات النهار حتى غروب الشمس، اللواتي يذهبن إليها لتزيين أنفسهن، فيصطحبن معهن المشاطة والوصيفات.

يقضي حضور السيدة إلى الحمام عدداً من الخادمات، إحداهن تغسل شعرها غسلاً جيداً بماء زهر البرتقال، وأخرى تكون على أتم الاستعداد لتجفيفه بمسحوق خاص أعدته من العطور التي تفوح رائحتها القوية المؤلفة من العنبر المحروق والقرنفل والقرفة والمسك. تُقسم الشعر وتضفره إلى جدائل صغيرة لا يقل عددها عن خمسين- عملية



طويلة وشاقة ومتعبة جداً- يضاف إلى ذلك المعاناة التي تقاسيها من لقط الشعيرات الزائدات في الحاجبين بالملقط، ثم صبغ الحاجبين صبغاً جميلاً جداً، وتكحيل الأهداب بالكحل الأسود الموضوع بمكحلة من الفضة أو الذهب"([1])

أما حمامات الرجال فقد وصفها الرحالة الإنكليزي ليون عام 1819 م، وحاول أن يقارن بينها وبين الحمامات التي زارها من قبل في مدن أخرى وقد علق عليها قائلا "والحمامات العامة الموجودة في طرابلس تشبه إلى حد بعيد حمامات تركيا ومصر على الرغم من إنها لا تتميز بالفخامة فيما يتعلق بالزينة والحجم وحينما يخلع الرواد ملابسهم يلتفون برداء من القطن ويطرحون آخر على أكتافهم[الإزار والمئزر] يتركونه قبل دخول غرفة البخار، وهي حجرة مستديرة تعلوها قبة بها فتحات زجاجية ضيقة يتسلسل منها بعض ضوء ولا يتسرب منها هواء، وتترك بضعة قناديل موقدة، فبخار الماء يجعل الرؤية صعبة وعلى جوانب الحجرة رصت مقاعد حجرية عريضة، وفي المنتصف يتربع قرص حجري كبير مشيد فوق الأفران. ولا بد أن تستلقي فوقه قليلا لتكون جاهزا للرجال الذين يقومون بتدليك وتنظيف أجساد الرواد، وينتظر المستحم قليلا حتى يتفصد عرقا ويتناوله الخدم بعد ذلك يدلكون جسده بقفازات من الشعر حتى تنزل الأوساخ قشوراً في لفات طويلة سوداء مهما كان الجسد نظيفاً قبل ذلك، وبعد أن تنتهي هذه العملية ويسمونها(التمرس) يؤتى بقطعة من الصابون إلى المستحم ثم يظل طويلا تحت صنبور يتدفق منه ماء ساخن، ويتسلم المستحم بعد ذلك لباسا جافا يلتف به جيدا ويجلس في غرفة أخرى تقدم فيها القهوة، والنرجيلة والعطور، ثم يرتدي المستحم ملابسه ويمضي لحاله، وأجر الحمام دون الصابون يساوي ما قيمته خمسة بنسات وهو مبلغ كبير

[1] - ريشارد توللي، المصدر السابق، ص 101.



نسبيا، ويرتاد الرجال الحمامات في الصباح وتأتيه النسوة في المساء"([1])

أما عن إدارة الحمام فالأمر قد لا يختلف كثيراً عما كان عليه الحال في العصر العباسي والعصور المتأخرة فالصابي عندما تحدث عن حمامات بغداد قدر أنه كان يشرف على كل حمام فيها ستة أشخاص هم: صاحب الصندوق، والقيم، والوقاد، والزبال، والمزين، والحجام([2]). في حين ذكر الخطيب البغدادي أن كل حمام في بغداد كان يدار من قبل خمسة أنفار هم: الحمامي، والقيم، والوقاد، والزبال، والسقاء([3]). ويبدو أن عدد العاملين يختلف من حمام لآخر، وهو أمر طبيعي فالحمامات الكبيرة المتميزة ببنائها وخدماتها تستقبل في أيام العطل والمناسبات وربما في كل يوم زبائن كثر، مما يستوجب زيادة العاملين فيها لتلبية جميع طلبات المستحمين.

حمامات مدينة طرابلس:

لم يكن لحمامات طرابلس نصيبا في مصادرنا العربية المبكرة، فالبكري (ت 487هـ) الذي وصف المدينة وتحدث عن أحوالها ومساجدها اكتفى بالقول "وبها حمامات فاضلة"([4]) وكذلك الكاتب المراكشي المجهول(القرن 6هـ/12م) في كتابه المشهور الاستبصار يقول ".... وبها سوق حافلة وحمامات كثيرة"([5])، أما التجاني (ت بعد 717هـ) فقد

[1] - جون فرانسيس ليون، المصدر السابق، ص 16.

[2] - الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت 448هـ)، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد(1383هـ-1964م)، ص 19.

[3] - الخطيب البغدادي، أبى بكر احمد بن علي(463هـ)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة(د.ت)، ص 117.

[4] - البكري، المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى،بغداد(د.ت)، ص 3.

[5] - كاتب مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، مصر (1958م)، ص؟؟؟



أحصاها وخصها بشيء من وصفه لقوله "ودخلت حمام البلد وهو مجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها، وهو الآن محبس على بعض المساجد، وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنهما من الحسن دونه"([1]) ويفهم من قول أبى محمد التجاني بأنه شاهد ثلاثة حمامات كانت قائمة بجوار القلعة وهي وقفاً على المساجد([2]).

ومن الطبعي أن تكون المعلومات المتعلقة بطرابلس ومعالمها العمرانية أكثر وضوحا وتفصيلا بعد السيطرة العثمانية(958هـ/1551م) لكثرة ما دونه الأجانب سواء أكانوا رحالة ومسافرين أم قناصل ومقيمين، ومن أول المهتمين بموضوع الحمامات الجراح الفرنسي جيرارد الذي كان أسيراً في طرابلس بين عامي 1668-1676م، يليه من حيث الزمن الإنكليزية ريتشارد توللي (1783- 1793م)، وقد قدمت لنا وصفاً رائعا عن حمامات النساء كما أسلفنا، ثم الرحالة جون ليون (1919م) وقد عد حماماتنا فقيرة بعد أن قارنها بمثيلاتها في كل من مصر وتركيا.

ومهما يكن فطرابلس اليوم ما زالت تحتفظ بثلاثة حمامات اثنان منها بحالة جيدة(الحمام الصغير و حمام الحلقة) أما الثالث(الحمام الكبير) فقد هدم ما عدا قاعة واحدة أصبحت جزء من السوق الشعبي.

1ـ الحمام الصغير(حمام درغوث باشا)

وهو من أقدم حمامات طرابلس المبنية خلال العصر العثماني، ويقع في محلة البلدية بجوار مجمع درغوث(المخطط- 1) الذي ضم جامعه المشيد خلال فترة حكمه(1553- 1565م) وضريحه المبني له بعد

[1] - التجاني، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس (1981)، ص 237-238.
[2] - عبد الكريم ابو شويرب، الحمامات الإسلامية، آثار العرب، العدد الخامس،1992، ص 84.



استشهاده في حرب مالطا عام 972هـ/1565م ومقبرة دفن فيها شخصيات عدة([1]). وقد عرف بالحمام الصغير تميزاً له عن نظيره الحمام الكبير([2]).

وحول تاريخ الحمام فالمرجح عند الباحثين أنه مبني في مطلع القرن السابع عشر الميلادي مع الإصلاحات الكبيرة التي خصت جامع درغوث بعد وفاته، وقد وثقت هذه الإصلاحات بلوح تذكاري مثبت فوق مدخل الجامع ضم بضعة أبيات من الشعر مكتوبة باللغة العثمانية، تحت إشراف علي بك قائد الجند في عهد إسكندر باشا سنة 1013هـ-1604م، فضلا عن طراز البناء وتخطيطه بطابع عثماني مميز([3]).

إذن لا يوجد تاريخ محدد في المصادر المتوافرة بين أيدينا يؤكد سنة بناء الحمام، على الرغم من أن سلنامة عام 1305هـ الخاصة بطرابلس الغرب قد أشارت إلى أن الرئيس درغوث بنى حماماً جعله وقفاً على جامعه القريب منه([4])، والحقيقة لم يكن الحمام موضوع البحث وقفاً على الجامع بل كان وقفاً على سور المدينة لغرض تعزيز دفاعاتها وحمايتها من الأخطار الخارجية([5]).

وصف الحمام:(المخطط- 2)

ينفتح الحمام على زقاق ضيق عرضه حوالي ثلاثة أمتار الأمر الذي جعله غير بارز للعيان، حيث حجبت قبابه الكبيرة بالمسجد والمباني الحديثة العالية، فضلا عن واجهته البسيطة الصماء التي لا تعكس هوية البناء ولا تنم عن ثراء ماعدا المدخل الذي يقع في طرف

[1] - شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ط 3،(1994م)ص 111.
عبد الكريم أبو شويرب، المرجع السابق، ص 86.

[2]- سالم سالم شلابي، معالم المدينة البيضاء مدينة طرابلس القديمة، منشورات دار الفرجاني، طرابلس(1994م)، ص 122.

[3] - علي صائم أولجان، مجمع الرئيس درغوث المعماري بطرابلس الغرب، ترجمة عبد الكريم أبو شويرب، آثار العرب ، العدد الثالث (1991). ، ص 81.
غاسبري ميسانا، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق حسنين، طرابلس،(1392هـ/1972م) ص 239.

[4] - طرابلس غرب سلنامه سي 1305هـ، ص 189.

[5] - علي صائم أو لجان، المرجع السابق، ص 81.
عبد الكريم أبو شويرب، المرجع السابق، ص 87.



الواجهة من الناحية الشمالية. وموقعه هذا حالة فرضها التصميم لاعتبارات وظيفية واجتماعية(الصورة-4).

إن قوام المدخل الرئيس في حمام درغوث كتلة مستطيلة من الحجر المالطي، وردي الشكل، محددة من الأعلى بإفريز، يتوسطها فتحة متوجة بعقد نصف دائري يرتكز على دعامتين يحمل كل منهما تاجا مربعاً. وقد تميزت كوشتي العقد وصنجاته وإطاره العلوي بوريدات بارزة وزعت وفق مبدأ التناظر فجعلت كل وردتين متقابلتين متشابهتين في الشكل والحجم والتصميم.(الصورة- 5)

يشغل فتحة المدخل باب خشب يتكون من مصراعين يعملان بوساطة كلاليب حديد مصنوعة محليا لهذا الغرض، أحدهما مثبت بطرف المصراع من جهة الجدار تقابلها حلقات مثبتة في البناء، والكلاليب هنا تعمل عمل المفاصل والرزات التي بواسطتها يتم تحريك الباب. أما مصراعا الباب فهما مصنوعان من ألواح خشب نضدت إلى بعضها بوساطة التعشيق أو ما يعرف بالنقر واللسان، حيث قسم كل مصراع إلى حشوات ذات أشكال هندسية منتظمة، وعلى الرغم من إمارات القدم الظاهرة على هذا الباب إلا أنه مستحدث لأن الباب الأصلي كان يدور بوساطة عمود مثبت بأحد طرفي الباب يرتكز على صنارة حجرية، ويدخل من الأعلى في فجوة مرتبة في عتبة المدخل وهي أصلية من الخشب.

يقود المدخل إلى مجاز(2م×5م) مسقوف بقبو نصف دائري يؤدي إلى القاعة الباردة، والمجاز مزود بمكاسل على شكل دكاك ارتفاعها 75سم.

ولم تقتصر وظيفة المجاز في الحمامات المصممة على الطراز العثماني بوصفها ممرات تفضي إلى القاعة الباردة فحسب، بل هي مكان لإدارة الحمام، حيث يجلس الحمامي لاستقبال الزبائن والترحيب بهم واستلام أماناتهم، لذلك يجهز المكان بأثاث جميل ويزين بالزخارف



لأنه يعكس هيبة الحمام ومقدار فخامته، ومن الملاحظ أن المدخل الذي يقود إلى القاعة الباردة في هذا المجاز لا يقع على محور المدخل الرئيس، ولعل ذلك كان بقصد منع المتطفلين من رؤية من في الداخل، لاسيما وأن الحمام في بعض أيام الأسبوع مخصصٌ للنساء.

ووفق الترتيب الطبيعي لأقسام الحمام تصبح القاعة الباردة هي الوحدة البنائية التي تلي المجاز، وتعد من أكبر الأقسام من حيث المساحة وهي مربعة طول ضلعها 8.80م، تعلوها قبة نصف كروية(الصورة -6) ترتفع فوق أرضية الحمام بمقدار 8.80م. وبهذه القياسات التي يتساوى فيها الارتفاع مع طول ضلع القاعدة يكون المعمار قد حقق نسب جمالية معقولة، لاسيما وأن ارتفاع غطاء القبة 4.40م([1])

لقد حدد المعمار القاعدة من الأعلى بإفريز من الجص، يليها منطقة الانتقال التي بلغ ارتفاعها 2.20م وقوامها أربع حنايا ركنية كبيرة تم بواسطتها تحويل مربع القاعدة إلى مثمن كي تتطابق الحواف السفلية للقبة مع حواف القاعدة(الصورة -7). والقبة مزودة بأربع نوافذ متناظرة فتحت فوق الحنايا الركنية وهي مستطيلة(0.70×1.30م) يعلوها عقد نصف دائري، وعليها مصاريع من الخشب ومحمية في الوقت نفسه بمشبكات حديد حديثة الصنع. وهناك نافذة خامسة مفتوحة بمنطقة الانتقال فوق المدخل الذي يقود إلى القاعة الدافئة، وطمعا بالمزيد من الإضاءة حرص المعمار على تزويد هذه القاعة بعشرات الفتحات الدائرية الصغيرة التي تحققت من خلال أنابيب فخارية رتبت أثناء البناء وهي مغشاة من الخارج بقطع شفافة من الزجاج لمنع دخول المطر.

لقد كشفت الهيئة المشرفة على الصيانة الأرضية الأصلية لهذه القاعة واتضح بأنها كانت مكسية ببلاطات رخام، والصور القديمة تظهر

[1] - من الملاحظ أن القياسات مأخوذة من الداخل، وأن ثخن جدران القبة من خلال النوافذ بلغ عند حوافها السفلية 50سم، ثم يتناقص ثخنها كلما ارتفع غطاؤها حتى يصبح عند القمة 35سم.



أنها كانت مزودة بسداد خشب تحتها خلوات لخلع الملابس، ولا شك أن وظيفة هذه السداد تقتصر على تخفيف الزحام في أيام الأعياد والجمع والمناسبات التي يشتد فيها إقبال الناس على الحمام.

ومما يفيد ذكره أن الهيئة المشرفة أزالت مؤخراً هذه السداد واتضح أنها كانت مضافة إلى الحمام في فترة متأخرة وليست من أصل البناء، ومع ذلك فالهيئة تسعى إلى إعادتها وتنوي جعلها معلقة على أعمدة خشب كما في حمام الحلقة.

لقد أصاب أحد الباحثين عندما عد الحجرات والسداد المضافة للقاعة الباردة تشويه أخلّ بتصميمها الأساسي وساهم في خلق مساحات مستطيلة لا تتفق مع القيم والمعايير الجمالية التي فرضها قانون معايشة الكتل داخل الفراغات([1]).

إن أهم ما يميز القاعة الباردة وجود نافورة(شاذروان) حديثة مصنوعة من الأسمنت على طريقة الحمامات التقليدية، وهي نسخة منقولة عن الأصل التي مازالت موجودة داخل السرايا الحمراء وكان الإيطاليون قد نقلوها في أول عهدهم إلى هناك([2]). وهي تحمل تاريخ 1001هـ وكتابات تفيد بأنه معمول لسليمان كتخذا([3]) فضلا عن زخارف نباتية مبرزة قوامها وريدات صغيرة غطت الأوجه الثمانية للشاذروان. (الصورة ـ 8)

أُلْحق بالقاعة الباردة حجرتان تقع الأولى على يمين الداخل وهي مربعة(1.90×2م) يعلوها قبو صغير يتقدمه عقد، وقد تميزت هذه الحجرة الصغيرة التي تشبه الإيوان بارتفاع أرضيتها وسعة مدخلها، ولها نافذة على الشارع، ولعل وظيفتها كانت تقتصر على جلوس العاملين وحفظ المناشف واللوازم الأخرى، أما الحجرة الثانية فقد شغلت الزاوية

---

[1] - فاروق أحمد شعبان، المرجع السابق، ص 159.

[2] - سالم سالم شلابي، المرجع السابق، ص 125.

[3] - إذا كانت قراءتنا للتاريخ صحيحة فمن الواضح هناك تناقض بين الكتابة والتاريخ، إذ من المعروف أن سليمان كتخذا قد عمل بمعية عثمان باشا الساقزلي(1059- 1083هـ/ 1649- 1672م). وفي كل الأحوال ليس للشاذروان علاقة بتاريخ الحمام لأنه على الأرجح منقول إليه.



الشمالية الشرقية من الحمام وهي تصلح أن تكون مقهى أو مخزن لحفظ اللوازم والمعدات الخاصة بالحمام.

ومن الطبعي أن ترتبط القاعة الباردة بالدافئة عن طريق مدخل مستطيل(1×2م) يعلوه عقد منبطح، والمدخل مؤطر بالرخام ومزين من الأعلى بثلاث وريدات ناتئة، والقاعة الدافئة في حمام درغوث صغيرة المساحة أبعادها(1.80م×4.50م) مسقفة بقبو منبطح فتح فيه منوران وجدرانها مغطاة بالسيراميك الحديث، ويوجد في هذه القاعة حوض صغير ودكة لاستراحة المستحمين أو تهيئتهم بقصد التعود تدريجياً للصمود داخل القاعة الساخنة، وهي أيضا لاستراحة المستحمين بعد خروجهم من القاعة الساخنة. ومن ملحقات القاعة الدافئة كنيفان يؤدي إليهما مدخل صغير مفتوح في صدر القاعة. كما يوجد مدخل آخر يقود إلى أحد الخلاوي لكنه ألغي مؤخراً وأصبحت الخلوة تنفتح على القاعة الساخنة فقط.

بعد اجتياز القاعة الدافئة يستطيع المرء الولوج إلى القاعة الساخنة عن طريق مجاز مصمم على شكل خلوة، والقاعة الحامية مستطيلة(6.90م×8.10م) مسقفة بقبة كبيرة(الصورة -9) ترتفع عن مستوى الأرض بمقدار 6.60م وتصميمها يشبه القبة فوق القاعة الباردة حيث تقوم على أربع حنايا ركنية(الصورة -10) ارتفاع كل منها 1.20م. ومزودة بأربعة عشر منوراً دائرياً موزعة بانتظام على غطاء القبة، فضلا عن خمسة مناور أخرى دائرية صغيرة تشبه تلك التي رأيناها في القاعة الباردة. ومن الملاحظ أن المعمار قد استغنى عن النوافذ الكبيرة لكفاية الإنارة بالفتحات المذكورة وهي مخروطة الشكل قطر فتحتها من الخارج لا يتعدى 30سم، في حين يتسع من الداخل ليصبح 40 أو أكثر بقليل([1]). وهي مغشاة بالزجاج الشفاف وذلك لمنع دخول المطر ولضمان عدم تسرب الحرارة والبخار إلى الخارج.

[1] - المناور الكبيرة المفتوحة في القبة الساخنة غير متساوية الأبعاد لان المعمار لم يعتمد في تنفيذها على أنابيب الفخار كما فعل في القبة الصغيرة.

يتوسط القاعة الحامية دكة مربعة(3.50م×3.80م) ارتفاعها متر واحد، مبنية بالآجر الحراري فوق بيت النار ومغلفة بالرخام الرمادي اللون، وهي مستحدثة لأن الدكة الأصلية أزيلت أثناء الصيانة الأخيرة بغية تأهيل الحمام للعمل ثانية بعد انقطاع طويل.

إن وظيفة الدكة هي تسخين القاعة وتوفير البخار بعد سكب كمية من الماء فوقها، كما إنها موضع استلقاء المستحمين بقصد التعرق قبل عملية التدليك، وتوجد في هذه القاعة مسطبة أخرى جانبية(1.55× 5.20م) مغلفة أيضا بالرخام نفسه وهي خاصة بالتدليك حيث يستلقي عليها المستحمون الذين يرومون هذه الخدمة، وفي الطرف الآخر دكة طويلة تمتد على طول الضلع القصير للقاعة، وعرضها لا يتجاوز 50سم تستخدم للجلوس وهي أيضا مغلفة بالرخام، وفي طرفها حوض ماء صغير من الرخام مزين بزهرتين في وسطهما هلال وهو من أصل البناء.

تضم القاعة الساخنة ستة خلاوي صغيرة أبوابها شارعة إلى الداخل عمق كل منها 2.20م وعرض أوسعها لا يتعدى المترين، وهي مسقفة بأقبية ومزودة بمناور دائرية للإضاءة ودكاك جانبية على شكل مساطب يجلس عليها المستحم قريبا من الحوض الذي يُمْلأ بالماء عن طريق صنابير حارة وباردة مرتبطة بأنابيب معدنية تمتد في سمت الجدران. ومن الملاحظ أن أحواض الخلاوي كلها أصلية من الرخام بعضها دائري وبعضها الآخر بيضوي.

أما القسم الخدمي فيمكن الوصول إليه عن طريق القاعة الباردة، ويقتصر على حجرة غير منتظمة الأبعاد وخلوة صغيرة صُيرت في الآونة الأخيرة كنيفا، ولما كانت الكنيفات الداخلية ترتبط بالقاعة الدافئة بوساطة أبواب فهي إذن ليست من ضمن القسم الخدمي كما ذهب إلى ذلك ميسانا([1])، بل معزولة عنه بجدر.

[1] - غاسبري ميسانا، المرجع السابق، ص 240، الشكل 53.



ويلي القسم الخدمي ممر منحدر طوله حوالي 16م وعرضه 1.80م يعرف بـ(المجر) في طرفه العلوي بئر قديم قطره حوالي 1.60م مازال الماء فيه متدفقاً، حيث يجبد بوساطة دلو في رأسه حبل طويل يجره حمار، لذلك غطي هذا المنحدر بسقف خشبي كي يقي الدابة من حرارة الشمس وبرد الشتاء.

وغير بعيد عن البئر حوض من البناء يجمع فيه الماء المستخرج، ويصب فيه عن طريق فتحة مربعة جعلت في سقفه المقبئ، ومن الطبعي أن يرتبط هذا الحوض عن طريق أنابيب بحوض آخر كبير يقع لصق القاعة الساخنة ويغذي في الوقت نفسه قدر التسخين الذي يزود الحمام بالماء الحار.

والقسم الأخير من هذا الحمام يتمثل في بيت النار وملحقاته، ولهذا القسم باب خاص من مصراعين كان في السابق ينفتح على أحد الشوارع الضيقة(زنقة)([1]). ووظيفة الباب تقتصر على إدخال الحطب والأزبال التي يعتمدها الوقاد في تسخين الحمام، وقوام بيت النار ممر منكسر مرتين بزوايا قائمة وقد انحدرت أرضيته باتجاه الموقد لتسهيل عملية دفع الأزبال والحطب إلى موقد النار.

إن هذا الجزء المهم من الحمام مسقف بأقبية نصف دائرية تقوم على عقود ساندة بعضها مبني بالآجر الأحمر ومعظمها مبني بالحجارة وقد زودت الأقبية بمناور دائرية وفتحات مربعة للتهوية والتخلص من الدخان الراجع من موقد النار، أما الموقد نفسه فقوامه أخدود على شكل ساقية عرضها 75سم تمتد تحت القاعة الساخنة على شكل شعب كما سيأتي تفصيله لاحقاً، وقد رتب فوق الموقد خزان من الحديد يسمى قدر([2])أو غلاية أو دست أو قازان وهو دائري محكم بغطاء، يأخذ

---

[1] لا يمكن الوصول إلى هذا الباب من الخارج لان الزنقة أغلقت وأصبحت في الوقت الحاضر ضمن الكتل البنائية المجاورة للحمام.

[2] - يسمي أهل طرابلس الإناء الكبير الذي يسخن فيه ماء الحمام بالغلاية، ويسميه بعض المؤرخين قدر فعلى سبيل المثال عبد اللطيف البغدادي (ت 629هـ) عندما وصف حمامات مصر قال: وفي موقده حكمة عجيبة وذلك أن يتخذ بيت النار وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربعة قدور .... واعلم أن القدور كل حين تحتاج إلى تجديد لأن النار تنقصها....عبد



ماءه من الحوض العلوي بواسطة أنبوب كما أسلفنا، أما القدر القديم فكان من النحاس.

ولما كان قدر الحمام عاليا فقد رتب بجانبه سلم من خمس درجات للمساعدة في الوصول إليه ومراقبة مياهه من قبل الوقاد باستمرار، ومما يجدر ذكره أن جهاز التسخين في حمام درغوث قد تغير بعد استخدام النفط حيث استحدثت له خزانات نفط يوقد بها الحمام بدل الحطب والأزبال.

ضم الجزء الخلفي من الحمام ساحة مكشوفة كانت على الأرجح مخصصة لنشر الأزبال وتجفيفها تحت أشعة الشمس أو خزنها في هذا المكان، كما ألحق بالجزء الخلفي خلوتان صغيرتان لعلهما بيت للوقاد، لاسيما وأن بعض المصادر أكدت على ضرورة ملازمة الوقاد لبيت النار ليلاً ونهاراً بقصد مراقبة النار وما تحتاج إليه من زيادة أو نقصان؛ لذلك لاغرو أن يقيم الوقاد أحيانا مع أسرته في الجزء الملحق بالحمام.

الصيـانـة:

اضطلعت هيئة خاصة انبثقت من مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة في مطلع عام 2005م للإشراف على صيانة حمام درغوث، وقد بدأت الهيئة عملها بإزالة طبقات الجص التي كانت تغطي قبابه وأقبيته من الخارج وكستها بطبقة جديدة من الأسمنت ثم طليت بدهان أبيض، بعدها انتقل العمل لصيانة القاعة الساخنة حيث قشرت جدرانها وأزيلت البلاطات الخزفية البيضاء التي كانت تغطيها، والأخيرة مضافة إلى الحمام خلال القرن العشرين، وقد استبدلت بأخرى حديثة مزينة بزخارف نباتية.

اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق أحمد غسان سبانو، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق(1403هـ/ 1982م)، ص 70. ويصف ابن طولون في حوادث 899هـ حمام بيدرم بدمشق وكيف "نزل صانع الحمام احمد القزيزاتي إلى الماء الذي بقدرة الحمام ليسد العيب الذي بها على عادته، فمات...." ابن طولون، المصدر السابق، ج 1،ص 156. وفي حوادث 923هـ يصف المورخ نفسه جولة السلطان سليم في دمشق وشراءه حمام الجوزة " من الناظر عليه بمائة دينار، خلا قدريته" المصدر نفسه، ج 2، ص 70.



والصيانة شملت أرضية القاعة الساخنة إذ رفعت الدكاك بما فيها الكبيرة المربعة فوق بيت النار، وحفرت أرضيتها بعمق قارب المترين بغية تبديل الرمال والآجر الحراري[1] القديم الذي ربما يعود إلى عهد الحمام الأول بمسوغ أنه غير صالح للعمل ثانية، وفعلا تم إعادة أخاديد النار المرتبطة بالموقد الرئيس والمتشعبة تحت أرضية القاعة الساخنة على شكل سواقي امتدت نحو جدرانها الأربعة بشكل متصالب وقد شيدت بآجر حراري مستورد، وكان لزاماً على مشرفي الصيانة في حمام درغوث الالتزام بالنظام التخطيطي القديم لبيت النار وإعادة بنائه وفق التصميم القديم لأنه يرتبط بأربع مداخن رئيسه مرتبة في البناء على شكل مجاري ترتفع فوقها كتل عالية مربعة لإبعاد الدخان.

وما دام قصد القائمين على الحمام تأهيله للعمل ثانية، فلا مناص إذن من بناء موقد النار وأخاديده الممتدة على شكل صليب تحت أرضية القاعة الساخنة بالآجر الحراري والطين، والأخير استخدم كمادة رابطة بين مداميك البناء وتحضيره يعتمد على الصلصال الأحمر بالدرجة الأساس حيث يعجن بالماء ويضاف إليه كمية من الملح ويستمر الخلط بالأيدي والأرجل حتى يذوب الملح ويتجانس المخلوط ثم يترك عدة أيام كي يتخمر ويصبح بعدها صالحاً للاستعمال، والحقيقة لا توجد نسب ثابتة لكمية الملح المضاف إلى الطين لكن بعض الصناع الذين التقيناهم أثناء الصيانة أكدوا أن نسبة الطين دائما أكثر من ضعف نسبة الملح.

وفي الحقيقة لا ادري ما الذي ينتج من تفاعل الملح مع العناصر الأساسية لمكونات الطين، لكي تصبح النتائج مذهلة بهذا الشكل الفعال؛ إذ لا يصلح الطين الصلصال بمفرده كمادة رابطة بين مداميك الآجر الحراري داخل الأفران كما لا يصلح لهذا الغرض الجص ولا الإسمنت؛

---

[1] - للأجر الحراري استخدامات كثيرة من أهمها تبطين مواقد النار والأفران على اختلاف أنواعها ومنها أفران صهر المعادن ذات الحرارة العالية . ويحضر الأجر الحراري من مواد يدخل في تكوينها معادن لها خاصية الانعكاس الحراري كمعدن الكروميت Crude Chromite وتكوينه الكيميائي ($2Fe\ Cr\ O_4$) مع أحد أنواع الفحم(Tar Coal)، وأحيانا يتكون من خام الكروميت والطين(الكاولين) وخام الألمنيوم (البوكسيت) فضلا عن مواد أخرى.
.Hurlbut. C, Dana's Manual Mineralogy, 18th edition, New York, 1959,P.298



لأن هذه المواد قابلة للتشقق والذوبان عند تعرضها للحرارة العالية، ولعل توصل الصناع إلى خلط الملح بالطين عند بناء الأفران ومواقد الحمامات، جاء نتيجة لتجاربهم الطويلة وخبرتهم المتوارثة، وأحسن شاهد على ذلك هو قول عبد اللطيف البغدادي (ت 629هـ) الذي دون كتابا عن مشاهداته في مصر وتحدث عن غرائب أبنيتها ومنها الحمامات فهو يقول: "ويفرشون أرض الآتون التي هي مقر النار بنحو خمسين أردباً(وحدة كيل) ملحاً وهكذا يفعلون بأرض الأفران لأن الملح من طبعه حفظ الحرارة"([1]). ويبدو أن هذه التقنية في صناعة مواقد الحمامات بمصر قد استمرت خلال العصر العثماني([2]).

والصيانة في القاعة الساخنة شملت أيضا الدكاك وهي مبنية بالآجر الحراري ومغلفة بالرخام الأبيض أو الرمادي اللون كما أسلفنا، وشمل التجديد دكاك الخلوات وأرضيتها واكساءها مع الجدران بالسيراميك، وكذلك القاعة الدافئة والكنيفات المتصلة بها.

أما القاعة الباردة فالعمل فيها مستمر وسوف يشمل تغليف الجدران بإزارة ارتفاعها حوالي مترين بالسيراميك كما هي الحال بالقاعة الساخنة. وكشف أرضيتها الأصلية المكسية بالرخام والعمل على إصلاحها. فضلا عن إزالة طبقات الجص من باطن القبة واكسائها بطبقة جديدة من الإسمنت، ثم إقامة سدة جديدة على غرار السدة القديمة.

إن كشف أرضية الحمام ساعد على تجديد المجاري القديمة، والتي كانت على شكل سواقي ذات مقطع نصف دائري مبنية بالحجارة ومغطاة بالرخام، أما المجاري الحديثة فقوامها شبكة من الأنابيب ترتبط بشبكة الصرف الرئيسة للمدينة، والصيانة ساعدت على مد أسلاك كهربائية لغرض إدخال الإنارة الحديثة.

---

[1] - عبد اللطيف البغدادي، المصدر السابق، ص 71.

[2] - محمد عبد الستار عثمان،"فقه عمارة الحمامات في العصر العثماني، دراسة تطبيقية على ثلاثة من الحمامات في صعيد مصر"، أعمال المؤتمر العالمي الرابع لمدونة الآثار العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس 20.1، ص 290.



ومهما يكن من أمر فإن استخدام مواد البناء الحديثة كالسيراميك والرخام والأسمنت والأنابيب البلاستيكية وأسلاك الإنارة الكهربائية، وإلغاء بعض المداخل وفتح أخرى جديدة وتحديث الأبواب الداخلية وإضافة خزانات مياه وبناء موقد نار جديد وتبديل القدر.....الخ، كل ذلك ساهم في طمس المعالم الأصلية بدلا من صيانتها بالطرق العلمية التي من شأنها أن تحافظ على الموروث الحضاري للمدينة القديمة، وكان الأجدى الإبقاء على الحمام الأصلي بعد نزع الإضافات منه وفتحه للجمهور بوصفه معلماً من المعالم المهمة داخل مدينة طرابلس بدلا من تأهيله للعمل ثانية بتكاليف باهضة جداً.

لقد أتاحت لنا الصيانة مشاهدة([1]) الأساليب المستخدمة في بناء الجدران والسقوف ومن خلالها تبين أن الحمام قد تعرض إلى ترميمات عديدة خلال عمره الممتد قرابة أربعة قرون، وأن جميع الجدران مبنية بالحجارة غير المنحوتة والطين وهي عريضة يصل بعضها إلى قرابة المتر، وأحيانا استخدم الجص في بناء وجهي الجدران واعتمد أيضا في بناء الأقبية والقباب، أما الرخام فقد اقتصر استخدامه على الأرضيات وتغليف الدكاك وأحواض المياه داخل خلوات الاستحمام، في حين استخدم القليل من الآجر والحجارة المنحوتة في بناء العقود.

ولا نترك الحديث عن حمام درغوث من غير الإشارة إلى جهود ميسانا الذي وضع له مخططاً يتطابق مع الواقع بدرجة عالية، بيد أن ميسانا عندما حاول تقسيم الحمام إلى ستة أقسام ألحق بعض خلوات القاعة الحامية بالقاعة الدافئة، وعد الكنيفات الداخلية جزءاً من منطقة الخدمات المستقلة في حين أنها مرتبطة بالقاعة الدافئة(المخططان-2-3).

2ـ الحمام الكبير:

[1] - أول زيارتنا للحمام كانت في 2005.5.4م



يقع في شارع سوق الحرارة الذي يعد من أكثر أسواق المدينة القديمة ازدحاما نظراً لنشاط الحركة التجارية فيه، وقد اشتهر بهذا الاسم لأنه اكبر حجما واتساعا من نظيره الحمام الصغير([1]).

أما عن تاريخ بنائه فالمتحف الإسلامي في طرابلس مازال يحتفظ بلوح حجري كان مثبتاً فوق المدخل الرئيس لهذا الحمام. وقد نقش عليه باللغة العثمانية أبيات من الشعر تشيد بعمارة الحمام وجمال نقشه وتنزهه من العيب والنقصان وتذكر فضله وفوائده وتدعو لمن دخله بالخير، وفي الوقت نفسه فالكتابة تنطق باسم بانيه عثمان باشا الساقزلي وتاريخ تشيده سنة 1069هـ/1658م([2]). وقوام النص الأصلي سبعة اسطر وترجمته كالأتي:

انشأ هذا الحمام عثمان باشا

ليس به عيب أو نقصان

من دخله طهر جسمه وفؤاده

حفظه الله وحفظ عباده أجمعين

كل من دخله يقول:

ما اجمل نقوشه وزينته

سنة تسعة وستين والف(1069)([3])

لقد جعل والي طرابلس عثمان باشا الساقزلي(1649-1672م) هذا الحمام وقفا على مدرسته المتميزة بعمارتها وقد ضمت مسجداً ومقبرة ومكتبة. وللأسف لم يبق من هذا الحمام سوى قاعة واحدة تعلوها قبة كبيرة تشهد له بالفخامة والسعة. ويبدو أنه تهدم في نهاية العصر العثماني، لأن المكان قد تحول بعيد الاحتلال الإيطالي عام 1911م إلى سوق اختص بالحرف التقليدية([4]).

---

[1] - سالم سالم شلابي، المرجع السابق، ص 126.
عبد الكريم أبو شويرب، المرجع السابق، ص 88.

[2] - Rossi, E, Le Iscrizioni Arabe e Turche del Museo di Tripoli (Libia), Triploitania (1953). P.68, Pl-2..

[3] - حول النص وترجمته يُنظر، عبد الكريم أبو شويرب، المرجع السابق، ص 88.

[4] - المرجع نفسه، ص 88.



3ـ حمام الحلقة:

مازال هذا الحمام قيد الاستعمال بعد صيانة شاملة تمت في بداية عام 2005م([1])، ويقع في زقاق النساء المتفرع من طريق الحلقة (الصورة -11)، وقد عرف بحمام النساء لتجمع بائعات الصوف المغزول بزقاق الحمام([2])، أو لبيع أحذية النساء (السبابيط)([3]). كما عرف بحمام (شيخ البلد) نسبة إلى مالكه (علي القرقني) الذي كان يشغل هذا المنصب خلال العصر العثماني الثاني (1835-1911م)([4]).

أما عن تخطيط الحمام وعمارته فهو لا يختلف عن حمام درغوث كثيراً(المخطط ـ 4). له مدخل رئيس يؤدي إلى مجاز طويل مسقف بأقبية صغيرة متقاطعة، وكان جانباً من هذا المجاز يستخدم لإدارة الحمام حيث ينتهي بالقاعة الباردة، وهي مربعة تعلوها قبة نصف كروية تقوم على أربع حنايا ركنية(الصورة ـ 12) ومزودة بفتحات دائرية ونوافذ للإضاءة. كما يوجد في القاعة الباردة نافورة وسدة من الخشب رتبت تحتها مجموعة من الخلاوي (الصورتان ـ 13، 14)، فضلا عن حجرة صغيرة لعلها كانت مخزن لحفظ المناشف واللوازم الأخرى.

وترتبط القاعة الباردة بالدافئة عن طريق مدخل صغير، والأخيرة مصممة على شكل ممر مسقوف بقبو نصف دائري ومزودة بكنيفات وخلاوي للاستحمام السريع، أما القاعة الساخنة فهي تشبه مثيلتها في حمام درغوث، إذ سقفت بقبة نصف كروية وزودت بسبع خلاوي ودكة رخام مربعة للتعرق أقيمت فوق بيت النار(الصورة- 15).

وفيما يخص الجزء الخدمي من الحمام فهو كالعادة معزول يؤدي إليه مدخل خاص، يضم الموقد وقدر لتسخين الماء ومكان لتجميع الأزبال، فضلا عن البئر والمجر وخزانات المياه.

---

[1] - بدأت الهيئة المشرفة بتسخين الحمام في الأول من مايو عام 2005م استعداداً لافتتاحه.
[2] - سالم سالم شلابي، المرجع السابق، ص 127.
[3] - عبد الكريم أبو شويرب، المرجع السابق، ص 90.
[4] - سالم سالم شلابي، المرجع السابق، ص 127.

لقد تعرض حمام الحلقة إلى صيانة شاملة تمت تحت إشراف مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة بغية تأهيله للعمل ثانية. ومن أجل ذلك قشرت جدرانه وسقوفه ثم كسيت بالإسمنت الحديث، كما كسيت القاعات الرئيسية وخلاوي الاستحمام بالسيراميك الملون، وشملت الصيانة تجديد أرضية الحمام وبيت النار ودكة التعرق المغلفة بالرخام وتبديل قدر الحمام([1]) (الصورة ـ 16)

مصادر المياه:

من المعروف أن سكان طرابلس يعتمدون في شربهم على مياه الأمطار التي يتم تجميعها عادة خلال موسم الشتاء في مواجل تحفر في تخوم الأرض وتبنى على شكل خزانات كبيرة مسقفة بأقبية أو قباب داخل البيوت والمساجد والفنادق والحمامات.

ولعدم كفاية مياه المواجل إلى نهاية فصل الصيف أحيانا يلجأ الناس إلى جلب الماء من آبار عذبة تقع في ضواحي المدينة أشهرها (بو مليانة)، ومياهه كانت تنقل على ظهور الحيوانات بوساطة السقائين، وبقي الحال كذلك حتى عهد أحمد باشا القرمانلي الذي حاول توصيل قناة معلقة على الطريقة الرومانية عام 1135هـ/1722م، مياهها متدفقة بصورة دائمة وهي محمولة على عقود ترتكز على دعامات كبيرة([2]).

إن هذا العمل الذي أرخ له حسن الفقيه حسن في يومياته، وعده ابن غلبون أحد إنجازات الباشا الجليلة وسابقة له، صرف عليه وأوقف لصيانته أوقافاً كثيرة([3]) كان يعمل بوساطة ناعورة ترفع الماء فوق العقود ليتم توصيلها إلى قلب المدينة([4]).ويقدر الفيسي ميلانوفيتش في تقريره الذي كتبه عن ولاية طرابلس عام 1765م إن طول الساقية التي

---

[1] - يحتفظ حمام الحلقة بقدره القديم المجعد، وهو دائري من النحاس.

[2] - حسن الفقيه حسن، المصدر السابق،ج 1 ،ص 685.

[3] - ابن علبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، مطبعة الفجالة الجديدة، ط 2، طرابلس (1386/ 1967) ص 271.

[4] - حسن الفقيه حسن، المصدر السابق، ج 1، ص 658.



تجلب المياه إلى قصر الباشا تصل إلى نصف ميل، وهي مقامة على أقواس بديعة ذات منظر خلاب، يبلغ ارتفاعها عن الأرض اثنى عشر قدماً([1]). أما انتوني كنيكت مستشار القنصلية البريطانية فيقدر طولها في تقريره المقدم إلى قنصليته بميل، وهي تقوم على ثلاثمائة قوس تزود القلعة والحمامات العامة، في حين تتزود السفن التجارية والحربية من النبع الرئيس([2]).

وعلى الرغم من أهمية هذا المشروع الحيوي إلا أنه لم يصمد طويلاً فسرعان ما تعطل وأصبحت العقود أطلالا. وتوقفه عن العمل كان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث وصفته الآنسه توللي عام 1792م بأنه مهمل وفي طريقه إلى الزوال قوساً بعد قوس، وهي تلوم الأهالي وتعنفهم على إهمالهم المخجل لهذا البناء المفيد والمنظم تنظيماً جيداً([3]).كما وثقت الآنسه توللي هذا المشروع المائي الفخم لأول مرة بصورة زيتية ذات ألوان خلابة، إذ رسمت جانبا من القناة وقد تهدمت بعض عقودها وآلت دعاماتها إلى السقوط([4]) (الصورة -17)

وفي العصر العثماني الثاني استحدثت بلدية طرابلس واتسعت مهامها في عهد أحمد راسم باشا(1881-1896م) فاضطلعت بإقامة إسالة ماء على البئر نفسه(بومليانه) الذي يبعد مسافة كيلومترين ونصف. وتمهيداً لهذا العمل تم توسيع البئر المذكور وتعميقه وتطهيره ونصب عليه ماكنة بخارية في جانبها خزان(6م×10م). كما أنشئ خزان آخر(سبيل) داخل المدينة قرب باب الخندق تتجمع فيه المياه المنقولة عبر أنابيب معدنية، والأخير مبني بجدران ثخينة مغلفة بالحجر المالطي

---

[1] - محمد مصطفى بازامه، الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر، مطبعة دار الكتب، بيروت(د.ت) ص 212.

[2] - أتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تعريب خليفه محمد التليسي، دار الثقافة، بيروت(1394-1974م) ص 289، هامش 56.

[3] - ريتشارد توللي، المصدر السابق، ص 462.

[4] - لم نحصل على الصورة الأصلية الملونة التي رسمتها الآنسة توللي للحنايا، المنشورة في الطبعة الأولى من كتابها المطبوع في لندن عام 1916م.



المزين بزخارف ونقوش جميلة وهو يستوعب 78 ألف لتر من الماء ومزود بستة حنفيات (الصورة - 18). وقد تم افتتاح هذا المشروع في يوم الخميس الموافق التاسع من شعبان سنة 1308هـ(1891م)([1]). ثم أنشأ الوالي رجب باشا عام 1324هـ/ 1906م سبيل ثاني في سوق الثلاثاء بأمر من السلطان عبد الحميد كما ينطق بذلك لوح التأسيس المثبت على واجهته. أما الثالث فقد شيد في مطلع القرن العشرين أمام الباب الجديد([2]).

إذن من الاستعراض السابق لمصادر المياه في طرابلس وتطورها طيلة العصر العثماني نستنتج أن الحمامات بقيت تعتمد على مياه الآبار التي تستخرج بمساعدة الحيوان كما فصلنا عند الحديث عن حمام درغوث. ـ باستثناء السنوات التي كانت فيها قناة احمد باشا القرمانلي تعمل والمياه فيها متدفقة ـ ومن المؤكد أن مياه الاستحمام المستخرجة من هذه الآبار كانت نقية لكنها في الوقت نفسه غير صالحة للشرب بوصفها مالحة لذلك يضطر القائمون على الحمام إلى شراء مياه الشرب من السقائين، بيد أن الحال قد تغير في عام 1913م إذ أقيم في طرابلس خزان كبير يستوعب ألفين متر مكعب ومزود بشبكة طويلة عليها 61 حنفية عمومية فضلا عن المشتركين([3]).

<u>المقارنة:</u>

تختلف الدراسة المقارنة في موضوع الحمامات عن الدراسات الأثرية الأخرى، إذ لم تتح الحمامات فرصاً كبيرة للمعماريين أن ينوعوا أو يبتكروا تصاميم جديده وتقيدوا بالتصاميم المألوفة، حيث خضعت هذه المنشآت الحيوية لوحدة التخطيط التي فرضتها عوامل معينة أهمها التكوين الوظيفي والعامل الصحي، وتخطيطها يعتمد على التقسيم

[1] - أحمد بك الأنصاري، المنهل العذب، مطبعة الاستقامة، القاهرة (1961م)ج 2، ص 36-38.
بلدية طرابلس في مائة عام 1286- 1391هـ/ 1870- 1970م، ص 127.

[2] - للمزيد انظر: سعدي إبراهيم الدراجي، مصادر مياه الشرب في طرابلس الغرب وسوا بلها خلال العصر العثماني، الثقافة العربية، العدد 296، السنة 35، يونيو 2008م، ص 99- 110.

[3] - المرجع نفسه، ص 273.



الثلاثي (البارد والدافئ والساخن) الذي أصبح قاعدة لا يمكن تجاوزها منذ عصر الرومان.

وانطلاقاً من هذه القاعدة نجد أن فكرة تخطيط الحمامات في معظم المدن تتشابه إلى حدٍ كبير ومنها حمامات طرابلس موضوع الدراسة. فلو قارنا حمامي درغوث والحلقة ببعضهما البعض لوجدنا أن الاختلاف ينحصر في المساحة فالأول أكبر مساحة من الثاني وتبعا لذلك تصبح الوحدات البنائية في الثاني أصغر وكذلك القباب، وربما نجد اختلافا آخراً في العناصر كاستخدام الأقبية المتقاطعة في تسقيف الممرات الضيقة في حمام الحلقة وعدم وجودها في درغوث. وخلا ذلك فالحمامان يتشابهان إلى درجة جعل البعض يكتب أن حمام الحلقة نسخة من حمام درغوث([1]).

ولعل المقارنة تصح بين حماماتنا البخارية والحمامات الكبريتية العلاجية المنتشرة في بقاع كثيرة من العالم أهمها دول البلقان وتركيا، حيث تتشابه فيما بينها من حيث التقسيم الثلاثي الذي يعتمد التدرج من القاعة الباردة إلى الدافئة ثم الساخنة، ويمتد التشابه أحيانا إلى عناصر البناء كالمدخل المتميز بصغر مساحته والقباب الكروية وطريقة إضاءتها والأحواض الرخامية. أما أوجه الخلاف فهي كثيرة أبرزها أن القاعة الباردة في الحمامات الكبريتية تتمتع بمسبح في وسطها بدلاً من النافورة التي توجد في حمامات البخار، كما أن القاعة الساخنة في الحمامات الكبريتية مزودة بمغطس ثماني الأضلاع يقابله في الحمامات البخارية دكة مربعة أو مثمنة وأحيانا دائرية من الرخام تجري عليها عملية التدليك. ولعل شيوع المغطس في الأولى يعود إلى كونها تستمد مياهها من عيون طبيعية لا تنضب لذلك فهي متجددة وجارية باستمرار ولا تحتاج إلى رفع أو تسخين. وفي العادة تكون الحمامات قريبة من هذه المصادر فتنقل مياهها عن طريق أنابيب فخارية محمية ببناء هرمي

---

[1] - غاسبري ميسانا، المرجع السابق، ص 242.



تمتد على شكل شبكة تغذي الصنابير والسلسبيلات والخزانات الكبيرة([2]).

ومن أحسن الأمثلة التي مازالت قائمة حول الينابيع في تركيا هي حمامات (أورخان وحاجي حمزة وإسماعيل بيك)، وجميعها تقليدية مبنية في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وهناك حمامات أكثر فخامة وتطور اشتهرت بكثرة زخارفها ومساحاتها الواسعة التي تغطيها قباب كبيرة محمولة على دلايات منشوريه كحمام تيمور طاش وحمام العين الساخنة في بورصة.

ومن الطبعي أن تكون الحمامات المشيدة في المدن الكبيرة كاستنبول أكثر شهرة لفخامة بنائها وجمال عمارتها لاسيما تلك التي تلحق بالمجمعات السلطانية أو التي تشيد بأمر الحكام والمسؤولين، فطالما أوحت إلى الكثير من الكتاب- شرقيين كانوا أم غربيين- بمواضيع علمية أو أسطورية تمثل بعضها بشكل لوحات لرسامين مشهورين أو رحالة(الصورة -19) ويعد حمام الصدر الأعظم رستم باشا(965هـ/ 1553م) من بين الأمثلة المتطورة، إذ ينم تخطيطه عن أسلوب جديد في العمارة، فبعد القاعة الدافئة المتميزة بقبتها وامتدادها المغطى بأنصاف قباب، يمر الداخل إلى القاعة الساخنة من خلال حجرة موصلة مسقفة بثلاث قباب صغيرة متجاورة وتحتوي الحجرة الساخنة على حوض كبير للماء الساخن حوله ثمانية أواوين تنفتح بعقود مدببة وأرضيتها مكسية بالرخام والفسيفساء، أما الجدران فهي مزينة ببلاطات خزفية جميلة.

ولم يقتصر الاختلاف بين حمامات استنبول وحمامات طرابلس على الفخامة وسعة البناء وجمال العمارة والزخرفة، بل تعداها إلى التخطيط لاسيما الحمامات المزدوجة التي تحتوي على خدمات كاملة ومنفصلة لراحة الرجال وخدمات أخرى لراحة النساء، ومن أقدم الأمثلة

---

[2] - فاروق احمد شعبان، المرجع السابق، ص 159ـ 165.



حمام محمود باشا المبني عام 871هـ/ 1466م في استنبول وحمام الخاصكي(965هـ/1553م) الذي يعد من روائع سنان(ت 996هـ/1588م) ([1]). والأخير تميز بمظهره الخارجي الأنيق(الصورة -20) وبتقسيم داخلي مبتكر يضم جناحا للنساء وآخر للرجال منفصلين(المخطط- 5) لكل منهما قاعة ساخنة تغطيها قبة تقوم على مثمن حوله ثمانية أواوين تنفتح بعقود، والشيء الجديد في هذا الحمام هو استخدام الآجر إلى جانب الحجارة في زخرفة الجدران فضلا عن بلاط الرخام ذي التعبيرات الغنية والزخارف الهندسية المتشابكة([2]).

وكما هو الحال في كبريات المدن العربية فالمألوف لدى الأتراك تعدد الحمامات الصغيرة وانتشارها في كل حي من أحياء المدينة بدلا من إقامة الحمامات المركزية ذات المساحات الواسعة، ومن أحسن الأمثلة حمام روداش الذي مازال يؤدي وظيفته، بناه مصطفى باشا في بوده ببلاد المجر عام 1566م، وهو حصيلة مرحلة بلغ فيها نمط التخطيط العماري للحمامات التركية أعلى درجات النضوج وفيه قبة كبيرة يصل قطرها إلى عشرة أمتار، وبأسفل القبة حوض يقوم على عقود منسقة على هيئة مثمن تحملها أعمدة خضر([3]).

وعلى الرغم من خضوع حمامات العراق لقاعدة التقسيم الثلاثي وتأثرها بالحمامات التركية، إلا أنها تختلف عن حمامات طرابلس في

---

[1] - ولد سنان عام 1489م في قرية اغرناس قرب قيصرية وعمر حوالي قرن من الزمان، عاصر خلاله أربع سلاطين هم (سليم الأول وسليمان وسليم الثاني ومراد الثالث)، وتنسب له الوثائق العثمانية 364 بناءً منها 63 مسجداً و49 مصلى و52 مدرسة و17 إمارة و3 مستشفيات و 7 قناطر مياه و 7 جسور و 27 قصراً و 18 خاناً و 5 شؤون و 31 حماماً و 18 ضريحاً. وتظهر عبقرية سنان المعمارية من خلال ثلاثة آثار عظيمة هي: مسجد شهزاده ومسجد السليمانية في استنبول ومسجد السليمية في ادرنة. وقد امتد تأثير المهندس سنان وتلاميذه إلى خارج تركيا، إذ استعان بهم إمبراطور الهند (بابار) في بناء القلاع في كل من دلهي وأكورا ولاهور وكشمير كما شيدوا للأباطرة المغول الكثير من القصور والأضرحة.
أوقطاى أصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استنبول (1987م)، ص 195.
حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، أوراق شرقية، بيروت،(1420-1999)، م 2، ص 69..

[2] - أوقطاى أصلان آبا، المصدر السابق، ص 230- 231.
عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، بيروت(1408هـ-1988م) ص 141.

[3] - أوقطاى أصلان آبا، المرجع السابق، ص 231.



أمور كثيرة من أهمها أن تصميم القاعات الرئيسة في معظم حمامات العراق يعتمد على عنصر الإيوان شأنها في ذلك شأن الخانات والأضرحة والمدارس والربط وغيرها من المنشآت. فالقاعة الباردة تكون عادة مربعة أو مثمنة تغطيها قبة فخمة تقوم على مقرنصات في وسطها فسقية من الرخام وحولها دكاك وأحيانا أواوين تنفتح على صحن القاعة بعقود، والأواوين في القاعة الباردة مسقفة بأقبية ومزودة بدكاك مفروشة بحصر لاستراحة المستحمين وخلع ملابسهم.

والاختلاف الجوهري الآخر يتمثل في العناصر الرئيسة لمكونات القاعة الساخنة، ففي حمامات العراق تصميم الخلاوي يكون عادة على شكل أواوين مزودة بأحواض صغيرة من الرخام تصب فيها المياه بواسطة صنابير وأمامها مقاعد حجرية متحركة، وفي وسط القاعة دكة كبيرة من الرخام يستلقي عليها المستحمون لغرض التعرق كما هو الحال في حمامي درغوث والحلقة.

إن بعض حمامات العراق لها وظائف مزدوجة حيث تنشطر القاعات الثلاث الرئيسية أو تتكرر فتصبح مجموعتين منفصلتين إحداهما للرجال والأخرى للنساء، أما باقي الوحدات الخدمية فتبقى مشتركة كالموقد ومصادر المياه، وأحسن الأمثلة لهذا النوع من الحمامات حمام العطارين(المخطط- 6) المبني في الموصل عام 1196هـ-1755م وحمام النساء فيه يتميز بصغر مساحته وقلة زخارفه([1]).

وتتقارب فكرة التخطيط بين الحمامات الفارسية والتركية لاسيما المتزامنة معها في التاريخ. ففي بلاد فارس نجد أعظم الحمامات يقع قرب الأضرحة المشهورة أو في وسط الأسواق، فبعضها يلحق بالخانات أو يرتبط بها عن طريق دهليز وكأنه بناية واحدة، كما هي الحال في مجموعة محمود الحاج سعيد المشيد في القرن الحادي عشر الهجري/

[1] - كاظم محمد كاطع الزبيدي، العمارة الخدمية في الموصل في العصر العثماني، رسالة ماجستيرغير مطبوعة، جامعة بغداد، كلية الأدب، قسم الآثار(1989م)، ص 110.



السابع عشر الميلادي في مدينة قاشان(المخطط- 7). ومحور تخطيطه حجرة استقبال مثمنة الشكل تقود إلى القاعة الباردة وهي فخمة البناء يعلو المنطقة الوسطى منها قبة محمولة على ثمانية أعمدة تتخللها أواوين تنفتح على صحن القاعة بعقود. أما القاعة الساخنة فقد صممت بطريقة مبتكرة قوامها مربع وسطي يحمل قبة ترتكز على أربعة أعمدة وحوله أربعة أواوين مسقفة بأقبية مقببة وأنصاف قباب تستند على ضلوع، وقد تفنن المعمار فيها من خلال التلاعب بوضعيات الآجر فأخرجها بشكل ينم عن ذوقه ويعكس خبرته العالية في البناء([1]).

ومن الطبعي أن تختلف حمامات الأندلس والمغرب عن حمامات طرابلس لأنها قديمة ومشيدة على النمط المحلي، فهي كالقصور تتميز بزخارفها ودقة بنائها ورونق أعمدتها وعقودها وأقبيتها وقبابها المبنية تارة بالحجارة وتارة أخرى بالأجر، ومن أقدم الأمثلة التي مازالت قائمة حمام عشار الصغير(الجوز) في غرناطة (المخطط- 8)، وقد أنشئ من أحباس المساجد في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وتخطيطه يعتمد على ثلاث قاعات يتقدمها بهو مزود ببركة ماء، فضلا عن وحدات خدمية صغيرة وحجرة لخلع الملابس مسقفة بقبو نصف دائري تتخللها مناور للإضاءة. يتلو البهو القاعة الباردة وهي مستطيلة في طرفيها رواقان لكل منهما عقدان على هيئة حدوة الفرس ثم يلي ذلك القاعة الدافئة التي تعد في الحمامات الأندلسية من أكثر الأقسام عناية، وقوام تصميمها مربع وسطي مسقف بقبة مفلطحة وحوله من ثلاث جهات رواق مسقف بقبو يطل على الداخل بعقود تقوم على أعمدة يعلوها تيجان مزخرفة فوقها حدارات هرمية(الصورة -21) وهذه القاعة التي تشبه جانباً من الأجنحة في القصور الملكية مضاءة بمناور دائرية ومبلطة بالرخام وسقوفها مبنية بالآجر. أما القاعة الساخنة فهي مستطيلة وفي طرفيها رواقان أيضا ومزودة بجناح خاص للاستحمام

---

[1] - Pope, Persian Architecture, New York, (1964) P.241.



قوامه حجرتان مربعتان يعلوهما قبوان متقاطعان في كل منهما حوض للاستحمام(مغطس)، وبين الحجرتين حجرة ثالثة تضم جهاز التسخين المتصل بمجاري خاصة مرتبة في الأرضية والجدران يمر عبرها البخار([1]).

ومن الحمامات الأخرى المهمة في الأندلس حمام اليهود في بسطة(المخطط- 9) وتخطيطه يشبه حمام غرناطه، حيث تحتفظ القاعات الثلاث بأجنحة جانبية على شكل أروقة عقودها على هيئة حدوة الفرس وسقوفها أقبية نصف أسطوانية مزودة بمناور على شكل نجوم سداسية. أما القاعة الدافئة فقد تميزت بتصميمها الذي يعتمد على بهو وسطي تحيط به من الجهات الأربعة أروقة مسقفة بأقبية([2]).

وتحتفظ طليطلة التي ظلت عاصمة للقشتاليين ردحاً من الزمن بحمامين أحدهما يعرف بحمام زبد والآخر مازال قائماً بلصق بئر أمارجو Amargo)) وكان يسمى في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حمام جائش، وهو يحتل مساحة مستطيلة مقسمة إلى ثلاث قاعات متوازية وقاعة رابعة معترضة كانت تستخدم كمجاز ينفذ منه الداخل إلى الحمام(المخطط- 10) وللأخيرة سقف قوامه قبوان متقاطعان متجاوران، أما القاعات الثلاث فهي أكثر تواضعاً وأقل فخامة من قاعات الحمامات السابقة على الرغم من أنها مصممة على الطريقة الأندلسية نفسها، إذ ضمت كل منها أجنحة جانبية على شكل أروقة تغطيها أقبية نصف دائرية تتخللها فتحات مربعة للإضاءة([3]).

وتتشابه الحمامات المغربية مع الأندلسية كثيراً، لاسيما المتزامنة معها في التاريخ كحمامات الرباط(المخطط- 11) التي تتكون من ثلاث قاعات مستطيلة يتقدمها بهو شغل حيزاً واسعاً من المساحة الفعلية وهو يحوي عناصر تكميلية مهمة كالمدخل والمجاز والمنافع والمخازن،

---

[1] - مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف والنشر، (د.ت)، ص 309.

[2] - المرجع نفسه، ص 316.

[3] - المرجع نفسه، ص 253.



فضلا عن أروقة تقوم على عقود نصف دائرية. ويليه القاعة الباردة التي هي بمثابة حجرة مستطيلة مسقفة بقبو بعكس حماماتنا المشرقية أو التركية التي تكون فيها الصدارة دائما للقاعة الباردة حيث يعتنى ببنائها وتسقيفها وأثاثها كما أسلفنا. والتركيز في الحمامات الأندلسية والمغربية ينصب عادة على القاعة الوسطى(الدافئة) وتكون مستطيلة أيضا لكنها مقسمة في الوقت نفسه إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوسط مربع الشكل مسقوف بقبة محمولة على عقود ترتكز على ثمانية أعمدة، والقسمين الآخرين بمثابة جناحين بشكل أروقة مسقفة بأقبية. أما القاعة الساخنة فهي مستطيلة دائماً لذلك يعتمد القبو في تسقيفها وتلحق بها أحيانا خلاوي وتزود بمغاطس وصنابير للمياه الباردة والحارة، ومن خلفها موقد النار وأحواض المياه والمكملات الأساسية الأخرى([1]).

وفيما يخص تونس فإن بعض مدنها مازالت تحتفظ بعدد كبير من حماماتها التراثية، لاسيما العاصمة حيث تشير إحدى الدراسات الحديثة التي اعتمدت على الوثائق والسجلات الخاصة برسوم الإيجار المسماة محليا بـ(الخروبة) إلى وجود أكثر من أربعين حماما في مدينة تونس خلال العصر العثماني، وقد توافرت عنها معلومات تفصح عن أسمائها وتاريخها وصفاتها ومُلاكها وأوقافها وأجرة كرائها ونفقاتها ومياهها وطرائق إيقادها وأدارتها وعدد العاملين فيها([2])، وكانت معظم هذه الحمامات وقفا على المنشآت الدينية والمشاريع الخيرية، حيث لعبت السلطة السياسية ومؤسسة الأحباس دورا مهما في تزويد المدينة بهذا الصنف من المباني الخدمية من أجل تطويرها.

ويعد حمام سوق القرار(AL-GRARA) من أقدم الأمثلة التي مازالت قائمة في مدينة تونس (المخطط ـ 12) وهو مؤرخ في سنة 387هـ/988م كما يشير إلى ذلك نقشه التأسيسي. وتخطيطه تقليدي

---

[1] - عبد الرحيم غالب، ص 135.

[2] - Ahmed Saadaoui; "Les Bains Publics de Tunis Alepoque Ottomane" Revue Tunisienne de Sciences Sociales, N-124, (2003),P.93-98.



يعتمد على ثلاث قاعات مسقفة بأقبية نصف برميلية أو متقاطعة فضلا عن الوحدات الخدمية، ويتميز بامتلاكه عدداً من المحلات التجارية التي تحيط بظاهر الحمام. ومن الملاحظ أن العديد من الحمامات التونسية نجدها مزودة بمحلات تجارية لاسيما القريبة من الأسواق مما أتاح لها أن تتفاعل مع حركة السوق وتكون جزءاً من نسيجه الحضري.

ويبدو أن الحمامات التونسية احتفظت بتخطيطها التقليدي الذي يعتمد على ثلاث قاعات رئيسية كما هو شأن الحمامات الطرابلسية، والاختلاف بينهما في طريقة التسقيف، حيث تجزأ القاعات الكبيرة في الحمامات التونسية إلى فضاءات مستطيلة ليتسنى تغطيتها بأقبية صغيرة، ما عدا القاعة الباردة التي فضل المعمار دائما تغطيتها بقبة مركزية تبنى بالأجُرّ أو الحجارة وبإزائها عدد من الأقبية كما في حمام الناعورة(المخطط - 13).

وفي الحقيقة لم يطرأ على تخطيط الحمامات التونسية تغيرات أساسية في العصر العثماني، لكنها أصبحت أكثر فخامة ومنها حمام الذهب (1105هـ/1694م) الذي بناه محمد باي في باب سويقة ليكون وقفا على مسجده(المخطط - 14). كما أوقف محمد باي في السنة نفسها حماما آخر يعرف بحمام سيدي خلاف، والأخير يشترك مع الأسواق المجاورة له بعدد من المحلات التجارية التي تمتد على طول واجهته(المخطط - 15). وتخطيطه يعتمد على قاعة باردة مربعة الشكل مغطاة بقبة كبيرة محمولة على عقود ترتكز على أعمدة حجرية، وحول القبة مساحات مستطيلة سقفت بأقبية. وكما هو الحال في حمامات طرابلس لم يعر المعمار التونسي للقاعة الدافئة أهمية تذكر، إذ جعلها حجرة صغيرة مسقفة بقبو متقاطع، أما القاعة الساخنة التي ضمت عددا من الخلاوي فهي واسعة ومن أجل ذلك قُسمت بواسطة جدارين إلى ثلاث حجرات لضمان تسقيفها بأقبية متقاطعة.



وهناك حمام متكامل البناء يقع في سوق الكتب(الوراقين) ويعرف بحمام القشاشين وقد بناه علي باشا في القرن الثامن عشر الميلادي وأوقفه على المدرسة الحسينية، ويتميز بانتظام بنائه وسعة مساحته، ومن أهم أقسامه القاعة الباردة المشيدة على طريقة المساجد التركية، وقد سقف القسم الوسطي منها بقبة كبيرة يحيط بها من الجهات الأربعة أقبية نصف دائرية، والقبة محمولة على عقود ترتكز على أعمدة وقد حول المعمار أعلى القاعدة المربعة إلى دائرة بواسطة أربع حنايا ركنية، أما القاعة الساخنة فقد سقفت بالأقبية بعد أن قسمت إلى عدة فضاءات مستطيلة بواسطة عقود وجدر عريضة(المخطط – 16).

وتحتفظ العاصمة تونس بحمام كبير مبني في مطلع القرن التاسع عشر(المخطط – 17) يعرف بحمام يوسف صاحب الطابع وهو مازال على حالته الأصلية ويحمل طابع المباني العامة في المدينة ويتميز بكثرة رخامه الملون، وتخطيطه لا يختلف عن باقي الحمامات التونسية، إذ يقود مدخله المعقود بصنج من الحجر الجيري إلى مجاز يتكون من حجرتين يعلو كل منهما قبو متقاطع، وفي المجاز مساطب حجرية وخشبية تستخدم لجلوس المستحمين قبل الولوج إلى الداخل.

والمجاز يقود إلى القاعة الباردة الخاصة بخلع الملابس وهي مربعة يبلغ طول ضلعها 11.10م وسقفها يشبه إلى حد كبير سقف القاعة الباردة في حمام القشاشين، حيث سقفت المنطقة الوسطى بقبة كبيرة نصف كروية تزينها ضلوع بارزة، محمولة على أربعة عقود نصف دائرية ترتكز على أعمدة ذات تيجان شاعت في الطراز العثماني. وكما هو الحال في قباب حمامات طرابلس فقد حول المعمار الجزء العلوي من القاعدة المربعة إلى دائرة بواسطة أربع حنايا ركنية كبيرة وزع بينهما نوافذ لغرض الإضاءة (المخطط - 18). وقد سقف المعمار الأروقة المرتبة حول القبة من الجهات الأربعة بأقبية نصف دائرية، ولا



يوجد في القاعة الباردة سوى مساطب حجرية بأسفلها فجوات لحفظ الصنادل والأحذية. ويتصل بالقاعة الباردة حجرات مكملة بعضها مخازن وبعضها الآخر مرافق. أما القاعة الدافئة، فهي مستطيلة يعلوها قبو، ومقسومة إلى قسمين فصل بينهما بجدار، ومزودة بمقاعد حجرية.

وخلافاً للحمامات الأخرى في العاصمة سقفت القاعة الساخنة بقبة مماثلة للقبة التي تعلو القاعة الباردة وبإزائها عدد من الأقبية، وهي مربعة أيضا طول ضلعها 11م ومزودة بتسع خلاوي صغيرة ومسطبة مربعة من الرخام طول ضلعها 4.55م وارتفاعه 42سم يستلقي عليها المستحمون للتعرق. كما يوجد في الحمام حوضان للمياه الساخنة وبئر يرفع مائه بناعوره([1]).

إذن بعد هذا الاستعراض السريع لأهم الحمامات القائمة في العاصمة تونس، وبيان تخطيطها وطبيعة عمارتها وأساليب تسقيفها، يمكن القول بشيء من الاطمئنان إن حمامات طرابلس لم تتأثر بحمامات تونس كما تأثرت بعض أبنيتها الدينية. ولم يقتصر الخلاف بينهما على طريقة تسقيف القاعات الكبيرة بل تعداها إلى التقسيمات الداخلية وشكل العناصر العمارية.

وعلى الرغم من اختلاف تخطيط الحمامات المصرية العامة المبنية في العصريين المملوكي والعثماني عن مثيلاتها الطرابلسية بوصفها تقتصر على قاعتين فقط هي الباردة والساخنة، إلا أنها تشترك مع معظم حمامات العالم الإسلامي ومنها حمامات طرابلس بجملة سمات، أهمها السعي إلى زيادة نسبة الفراغ الداخلي للوحدات البنائية، وذلك من خلال ارتفاع الجدران المصممة لحمل سقوف ثقيلة كالأقبية والقباب، فضلا عن اتساع الوحدات البنائية المرتبطة باتساع المساحة الكلية.

---

[1] - Ahmed Saadaoui; Op.cit, P.120-125.



وتشترك أيضا في صغر المداخل وازورارها أو عدم وقوعها على محور الفتحات الداخلية، وهذا من شأنه أن يقلل من دخول تيارات الهواء إلى الداخل ويحجب الزبائن عن عيون المارة في الخارج، وعلى عكس ذلك نرى بعض الاتساع في المداخل الخلفية أو الجانبية المخصصة لدخول الحيوانات المحملة بالأزبال أو الحطب.

إن الفكرة الأساسية لتصميم الوحدات الساخنة في الحمامات المصرية تعتمد على عنصر الإيوان شأنها في ذلك شأن حمامات العراق المبنية في العصر العثماني، حيث تحتوي القاعة الساخنة على عدة أواوين مفتوحة بكامل اتساعها على المنطقة المركزية التي تتوسطها في العادة فسقية وتعلوها قبة تكون أعلى من أقبية الأواوين. مما يساعد على تجديد هواء الحمام، لا سيما وأن المكان يخلو من النوافذ المفتوحة([1]).

ومن الواضح أن هناك علاقة بين الاهتمام باتساع الوحدات الداخلية وارتفاعها وقلة النوافذ لا سيما في القاعة الساخنة. لأن اتساع قاعات الاستحمام وارتفاع أقبيتها وقبابها يساعد على تجنب الشعور بضيق التنفس ويسهم في توفير نسبة كافية من الهواء المحمل بالأوكسجين لاستمرار مكوث المستحم في الداخل وقت أطول.

وتتضمن بعض الحمامات المصرية بجانب الأواوين خلاوي للاستحمام، يتوصل إليها بمداخل صغيرة مشغولة بأبواب وهي مصممة بطريقة معينة بحيث توفر خصوصية لمن بداخلها إلى حد كبير. ومن سماتها تباين مساحاتها فبعضها صغير يتسع لشخص واحد أو شخصين وبعضها الآخر كبير يتسع لعدة أشخاص، ولعل في هذا التنوع فائدة لا سيما في الحمامات التي تستقبل النساء، حيث تستطيع المسلمة أن تستحم بمفردها بعيداً عن عيون الذميات وغير المسلمات. ومن شأن

---

[1] - محمد عبد الستار عثمان، "فقه عمارة الحمامات في العصر العثماني، دراسة تطبيقية على ثلاثة من الحمامات في صعيد مصر"، ص 282.

الخلوات الكبيرة في حمامات النساء توفير خصوصية للعوائل التي تروم الاستحمام في مكان مستور.

وتختلف الحمامات المصرية عن الطرابلسية بوجود المغاطس، التي تعد من أهم المرافق التي يشتمل عليها بيت الاستحمام في الحمامات المصرية، وقوام المغاطس أحواض مربعة أو دائرية قطر كل منها متر واحد وعمقها أكثر من ذلك بقليل، وهي مبنية بالحجارة أو الآجر ومكسية بطبقة من الملاط ليسهل تنظيفها وتبديل مياهها باستمرار وذلك عن طريق فتحات مرتبطة بقنوات الصرف.

وتعكس حمامات القاهرة ومدن مصر الأخرى مقومات الجمال وذلك بوجود فسقية من الرخام تتوسط القاعة الباردة وأخرى تتوسط القاعة الساخنة، يرتفع الماء فيها من خلال فوارة تعمل باستخدام الحيل الهوائية التي أشارت إليها المصادر التراثية المتخصصة([1]). أما حمامات طرابلس فوجود الفسقية يقتصر على القاعة الباردة، إذ يتوسط القاعة الساخنة دكة كبيرة من الرخام يستلقي عليها المستحمون للتعرق كما أسلفنا.

ولم يقتصر الاختلاف بين حمامات مصر وطرابلس على التخطيط وعناصر البناء، بل تعداها إلى مواد الإنشاء، حيث اعتمد المعمار على الخشب بكثرة، لا سيما في السقوف المستوية التي تغطي القاعة الباردة وبعض الوحدات الأخرى البعيدة عن الحرارة. وكذلك اعتمد على الآجر بوصفه أقوى المواد على تحمل الحرارة وقلة تأثره بالماء. في حين اعتمد المعمار الطرابلسي على الحجارة فبنى فيها الجدران وأقام بها القباب. واقتصر استخدام الآجر في طرابلس على أجزاء معينة من البناء كالحنايا والعقود. أما الرخام فقلما يخلو منه حمام لأنه الأفضل في تكسية الأرضيات والفساقي وأحواض المياه، كما أنه أحسن المواد مقاومة لحرارة الحمام وبخاره، ويساعد في الوقت نفسه على النظافة

---

[1] - المرجع نفسه، ص 281.



من خلال سرعة انسياب المياه لنعومة سطحه المصقول، فضلا عن قيمته الجمالية.

إن أحسن الأمثلة التي مازالت تحتفظ بمعالمها القديمة نجدها قائمة في الصعيد، ومنها حمام في جرجا بناه علي بيك الفقاري عندما كان أميراً على لواء جرجا للفترة (1043-1063هـ/ 1633-1653م). ومحور تخطيطه(المخطط - 19) قاعتان كبيرتان الأولى (الباردة) سقفها من خشب، يؤدي إليها مدخل يتصل بمجاز منكسر، وهي مزودة بفسقية مستطيلة الشكل رتبت حولها دكاك مبنية بالحجارة. أما القاعة الأخرى (الساخنة) فهي مزودة بأربعة أواوين متصالبة تحصر بينها مغطسان ومجموعة من الخلاوي، علما أن المنطقة الوسطى لهذه القاعة مشغولة بفسقية مثمنة ومسقفة بقبة آجرية ترتفع بالهواء عاليا فوق الأقبية التي تغطي الأواوين والخلاوي([1]).

وعلى الرغم من خلو حمام علي بيك من القاعة الدافئة إلا أن المعمار نجح في إيجاد بديل عن ذلك حين زود القاعة الباردة بدهليز منكسر مسقف بقبو نصف دائري ومزود بنوافذ للإضاءة، ولعل وظيفة الدهليز الأساسية هو عزل القاعتين عن بعضهما أو السعي إلى إيجاد منطقة وسطى دافئة تفصل بين البرودة والحرارة.

وهناك مثال أخر في أسيوط يعود على الأرجح للعصر العثماني المبكر([2]) (المخطط - 20) وتخطيطه لا يختلف عن الحمامات المصرية المشيدة في العصر المملوكي كحمام بشتاك وحمام السروجية في القاهرة، ويتكون من قاعتين (الباردة والساخنة) ضمت الأولى مجموعة من الأواوين أمامها فسقية مربعة، وقد سقفت بألواح من الخشب ترتكز على جوائز من جذوع النخيل.

أما القاعة الساخنة فقد فرشت أرضيتها بالرخام الملون وسقفت بقبة مرتفعة تتخللها فتحات مغشاة بقطع من الزجاج محمولة على حنايا

[1] - المرجع نفسه، ص 303.
[2] - المرجع نفسه، ص 309.



ركنية. وينفتح على وسط القاعة إيوانان وثلاثة خلاوي ومغطسان للاستحمام.

ولا يفوتنا الإشارة إلى حمام عثماني أخر مازال قائما في مدينة قنا (المخطط - 21) وقد بني على نمط الحمامات السالفة الذكر، ويتكون من قاعتين يربط بينهما دهليز منكسر([1]).

وقبل أن نختم حديثنا عن الحمامات لابد إن نشير إلى علاقة الحمامات بالمنشآت الأخرى بوصفها جزءاً لا يتجزأ من نسيج المدينة. إذ تتشابك الوظائف بين المنشآت المختلفة لتسهم في خلق الألفة بين الجّوار سعياً لتحقيق التكامل، لاسيما في المراكز المزدحمة فالسوق القريب من الحمام يمد الزبائن بكل ما يحتاجونه من لوازم وأدوات تعينهم على الاستحمام والنظافة. كما أن بعض الحمامات ترتبط بعلاقة وثيقة مع المقاهي والمطاعم المجاورة لخلوها من هذه الخدمات، وفي العادة تلبي المقاهي القريبة طلبات الزبائن فتقدم أنواع المشروبات. لذلك نلاحظ أن بعض المقاهي في المدن العريقة تقوم بلصق باب الحمام أو قبالته كما هي الحال في مقاهي دمشق فمقهى باب جيرون يقع قبالة حمام الذهبية، ويوجد بلصق كل من حمام الجوزة والملكة مقهى من العصر العثماني([2]).

[1] - المرجع نفسه، ص 313.

[2] - بريجيت مارينو، مقاهي دمشق واصحابها في القرن 18-19م، ترجمة محمد وليد حافظ، دراسات تاريخية، السنة 22، العددان 79-80، (دمشق-2002م)، ص 227.



المصادر

- أتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تعريب خليفة محمد التليسي، دار الثقافة، بيروت(1394-1974م).
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد(ت 370 هـ)، تهذيب اللغـــة، تحقيق عبد السـلام محمد هارون، الدار المصــرية للتأليف والنشـــر، القاهرة(1964- 1967).
- أسامة بن منقذ(ت 584هـ)، كتاب الاعتبار، تحقيق فليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة،(1930).
- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن ابن ماجه، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض(1407هـ-1986م).
- الإمام مسلم بن الحاج النيسابوري(261هـ)، صحيح مسلم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت(1419هـ- 1999م).
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت(1385هـ-1965م).
- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد العبدري (ت 737هـ)، المدخل، المطبعة المصرية، مصر (1348هـ/1929م).
- ابن جُلجل، أبو داود سلمان بن حسان الأندلسي(ت 384هـ)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة (1955م).
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد(ت 809هـ)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، مطبعة بولاق،مصر(1310هـ ت 1894م).



- ابن سيده ، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 458 هـ)، المخصص، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ودار الأفاق الجديدة، (د.ت).
- ابن طولون، شمس الدين محمد(ت 953هـ)، فكاهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة(1348هـ-1964م).
- ابن عذارى، محمد المراكشي (ت نحو 695هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت (د. ت).
- ابن عساكر، علي بن الحسن الشافعي(ت 571هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت(1415هـ-1995م).
- ابن غلبون، محمد بن خليل (ت 1177 هـ)، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، مطبعة الفجالة الجديدة، ط 2، طرابلس (1386/ 1967)
- ابن كثير، عماد الدين اسماعيل الدمشقي (ت 774 هـ)، البداية والنهاية في التاريخ، مكتبة المعارف، بيروت و مكتبة النصر، الرياض،(1966م)
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم(ت 711هـ)، لسان العرب، ، دار صادر، بيروت(1376هـ/ 1956م).
- أحمد بك الأنصاري، المنهل العذب، مطبعة الاستقامة، القاهرة(1961م).
- الأزدي،أبو زكريا يزيد بن محمد(334هـ)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه، القاهرة (1387هـ-1967م).



- أوقطاى أصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة احمد عيسى، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، استنبول(1987م).
- بريجيت مارينو، مقاهي دمشق وأصحابها في القرن 18-19م، ترجمة محمد وليد حافظ، دراسات تاريخية، السنة 22، العددان 79-80، (دمشق-2002م).
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز(ت 487هـ)،المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت).
- البلاذري، احمد بن يحيى(279هـ)، فتوح البلدان، مطبعة البيان، القاهرة(د.ت).
- بلدية طرابلس في مائة عام 1286- 1391هـ/ 1870- 1970م، شركة دار الطباعة الحديثة، طرابلس (1972).
- التجاني، عبد الله بن محمد بن أحمد (ت بعد 717هـ)، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس (1981).
- ثروت عكاشه، الفن الروماني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر(د.ت).
- جورج كونتنيو، الحياة اليومية في بابل وأشور، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي وبرهان عبد الكريم، دار الحرية، بغداد(1979م).
- جون فرانسيس ليون، من طرابلس إلى فزان مذكرات الرحالة الإنكليزي جون فرانسيس ليون 1818، نقله إلى العربية مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس(1396-1976).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد(ت 398هـ)، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفار، دار العلم للملايين، ط 2، بيروت(1399هـ-1979م).



- حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، أوراق شرقية، بيروت، (1420-1999).
- حسن الفقيـه حسن (ت 1284هـ)، اليوميات الليبيـة، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، طرابلس (1984)،ج 1.
- حسن الفقيه حسن(ت بعد 1283هـ)، اليوميات الليبية، تحقيق عمار جحيدر، مطابع المؤسســـة العلمية للوسائل التعليمية، حلب (2001)،ج 2.
- الخطيب البغدادي، أبى بكر احمد بن علي(463هـ)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة(د.ت).
- خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة، الدار العربية للكتاب، ط 2، ليبيا- تونس(1985).
- ريتشارد ايتنكهاوزن، فن التصوير عند العرب، ترجمة وتعليق عيسى سلمان و سليم طه التكريتي، وزارة الإعلام، بغداد(1973م).
- ريبشارد توللي، عشرة أعوام في طرابلس، ترجمة عبد الجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي(1967).
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت 1205هـ)، تاج العروس، دار صادر، بيروت (1386هـ-1966م).
- زكي محمد حسن، التصوير في الإسلام عند الفرس، دار الرائد العربي، بيروت (1401-1981).
- زينب صادق علي البسكري، الحمام العراقي الإسلامي في ضوء التنقيبات الأثرية، سومر، م 38، 1982.
- سالم سالم شلابي، معالم المدينة البيضاء مدينة طرابلس القديمة، منشورات دار الفرجاني، طرابلس(1994م).



- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية(1985م)
- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد(ت 388هـ)، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، ط 2، بغداد(1386-1966).
- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ط 3،(1994م).
- الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت 448هـ)، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد(1383هـ-1964م).
- طرابلس غرب سلنامه سي 1305هـ.
- عبد الجبار محمد جرجيس، الحمامات الشعبية في الموصل، التراث الشعبي، العدد السادس، السنة السادسة، بغداد(1975).
- عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، مطبعة جروس برس، بيروت (1408هـ-1988م).
- عبد الكريم أبو شويرب، الحمامات الإسلامية، آثار العرب، العدد الخامس،(1992).
- عبد اللطيف البغدادي(ت 629هـ)، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق احمد غسان سبانو، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق (1403هـ/ 1982م).
- علي صائم أولجان، مجمع الرئيس درغوث المعماري بطرابلس الغرب، ترجمة عبد الكريم أبو شويرب، آثار العرب ، العدد الثالث (1991).
- علي محمد مهدي، الأخيضر، دار الجمهورية، بغداد (1969م).



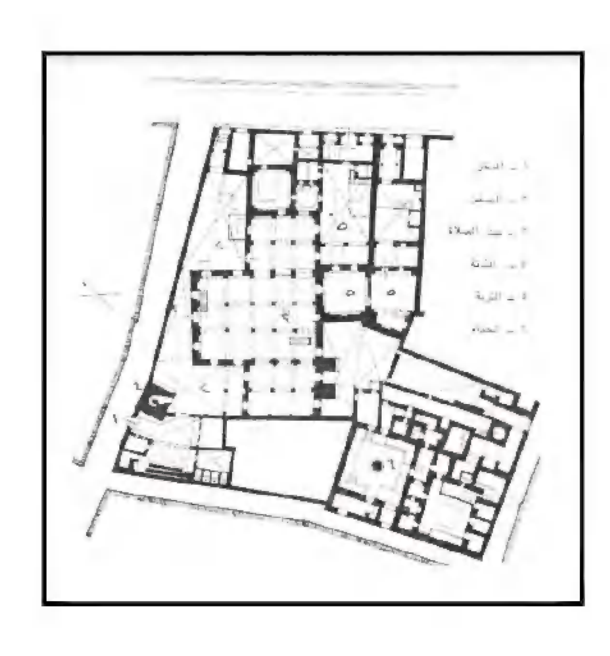
- غاسبري ميسانا، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق حسنين، طرابلس (1392هـ/1972م).
- فاروق أحمد شعبان، عمارة حمام ضرغوث بطرابلس ليبيا بين الأسس الهندسية والجمالية، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة العاشرة (1988م).
- كاتب مراكشي مجهول(ت القرن 6هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، مصر(1958م).
- كاظم محمد كاطع الزبيدي، العمارة الخدمية في الموصل في العصر العثماني، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الأدب، قسم الآثار(1989م).
- كاكيا، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني 1835-1911، دار الفرجاني، طرابلس (1395-1975م).
- الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف المصري(ت 350هـ)، الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت(1908م).
- مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف والنشر، (د.ت).
- محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس (1974).
- محمد باقر الحسيني، الأخيضر التحري والصيانة ورفع الأنقاض للموسمين الثالث والرابع سنة 1962- 1963، سومر، العدد 12،المجلد 1- 2، سنة 1966م.

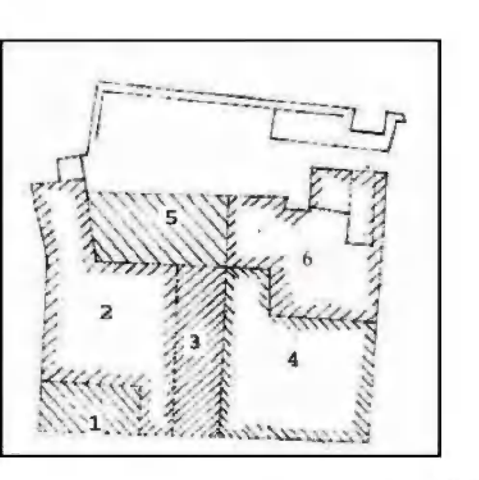


- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مطابع الرسالة، الكويت(1988م).
- محمد عبد الستار عثمان، "فقه عمارة الحمامات في العصر العثماني، دراسة تطبيقية على ثلاثة من الحمامات في صعيد مصر"، أعمال المؤتمر العالمي الرابع لمدونة الآثار العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس 2001.
- محمد علي مصطفى، تقرير أولي عن التنقيبات في الكوفة للموسم الثالث، سومر، م 12، ج 1-2، 1956.
- محمد مصطفى بازامه، الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر، مطبعة دار الكتب، بيروت(د.ت).
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني(ت 1041هـ)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين، مطبعة السعادة، مصر(1367هـ-1949م).
- المقريزي ، تقي الدين احمد بن على(ت 845هـ)، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت(1411-1991).
- المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر للطباعة، بيروت (د.ت).
- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (1939).
- مكتب الإنشاءات الهندسي ـ الموصل، العمائر الخدمية في مدينة الموصل نماذج من التوثيق العام، ج 2، وزارة الثقافة والإعلام، المؤسسة العامة للآثار والتراث (1982م).
- منير كيال، الحمامات الدمشقية وتقاليدها، دمشق(1966م).

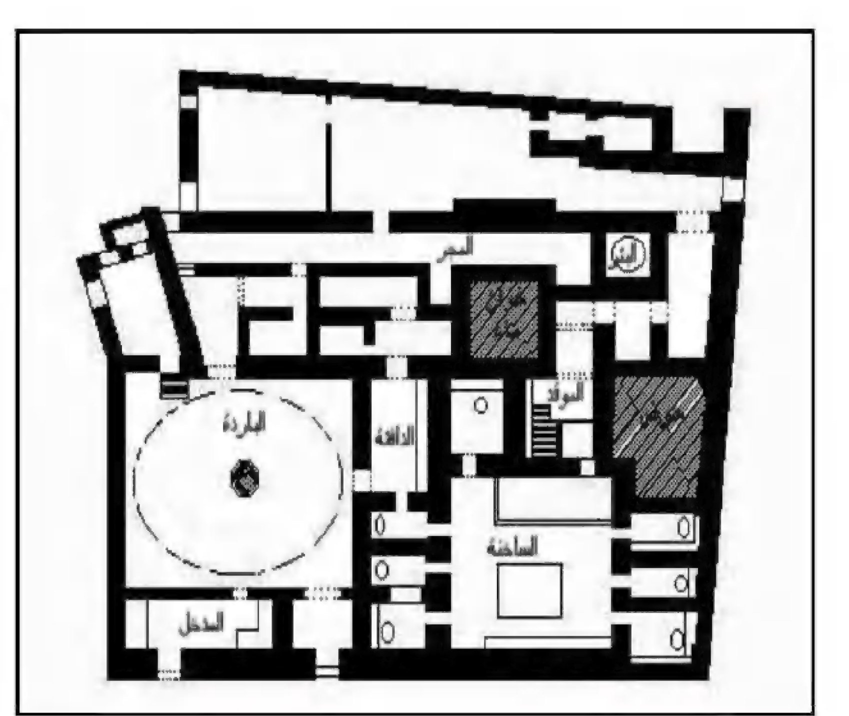


- نظمي زاده مرتضي، كلشن خلفا، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس،النجف (1971م).
- الوزير السَراج، محمد بن محمد الأندلسي(ت 1149هـ)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب السهيلة، دار المغرب الإسلامي، بيروت(1985م).
- اليعقوبي،احمد بن أبى يعقوب بن واضح(ت 284هـ)، البلدان، ملحق مع كتاب الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن(1891م).
- يوسف الدواف، إنشاء المباني والمواد البنائية، مطبعة أوفسيت الميناء، ط 4، بغداد (1976).
- Ahmed Saadaoui; "Les Bains Publics de Tunis Alepoque" Ottomane Sociales, N-124, (2003). Sciences Revue Tunisienne de
- Creswell, k. a. c, Early Muslim Architecture, Oxford-1969, Vol .1, .Part. 2
- .Hurlbut, C, Dana's Manual Mineralogy, 18th edition, New York, 1959
- .Pope, Persian Architecture, New York, (1964)
- Robertson,D.S,Greek and Roman Architecture, Second Edition, .Cambridge University, (1971-1974)
- Rossi, E, Le Iscrizioni Arabe e Turche del Museo di Tripoli (Libia), .Triploitania (1953)





(المخطط ـ 1) مجمع سيدي درغوث



(المخطط ـ 3) الحمام الصغير



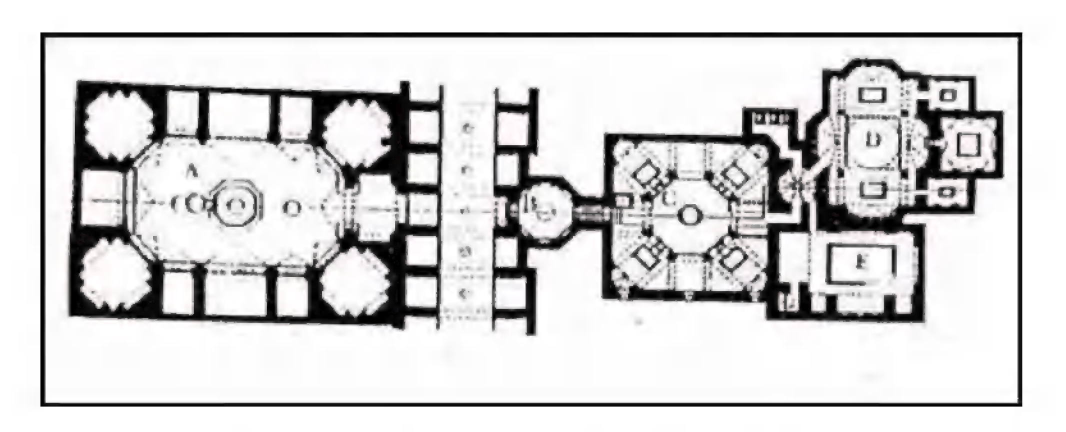
(المخطط ـ 2) الحمام الصغير أو حمام درغوث / رسم الباحث

(المخطط ـ
) حمام
الحلقة في
طرابلس/
رسم
الباحث
(المخطط ـ
الخاصكي
استنبول

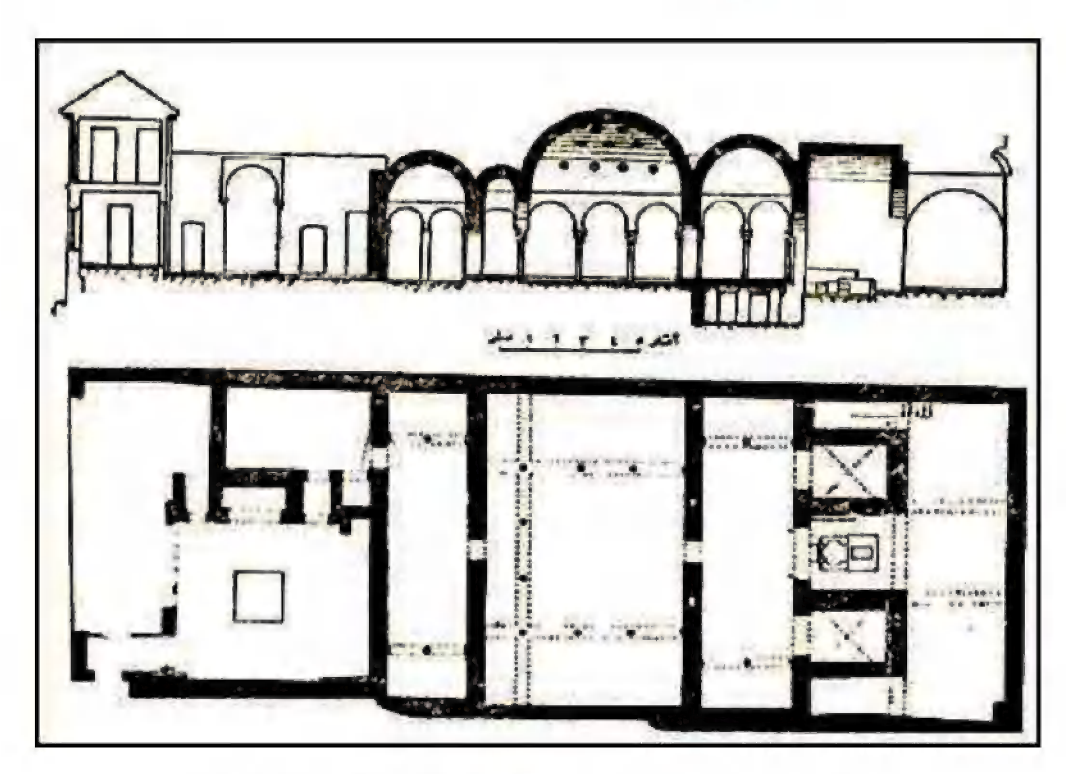
5) حمام
في



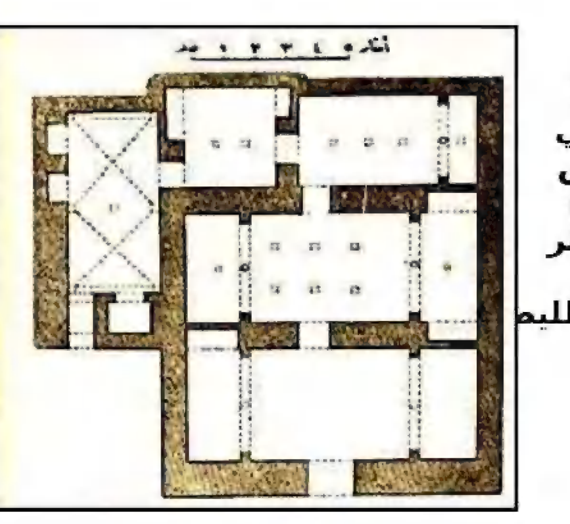
(المخطط ـ 6) حمام العطارين في الموصل/ رسم البا



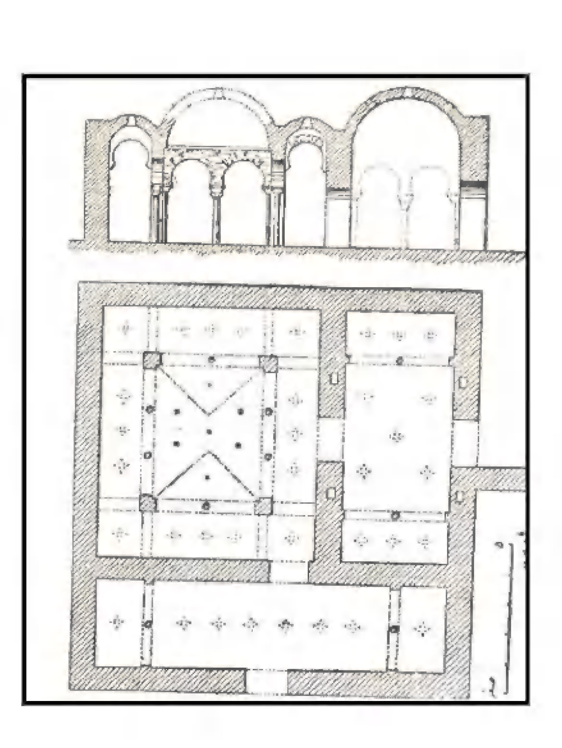
(المخطط ـ 7) حمام الحاج سعيد في قاشان



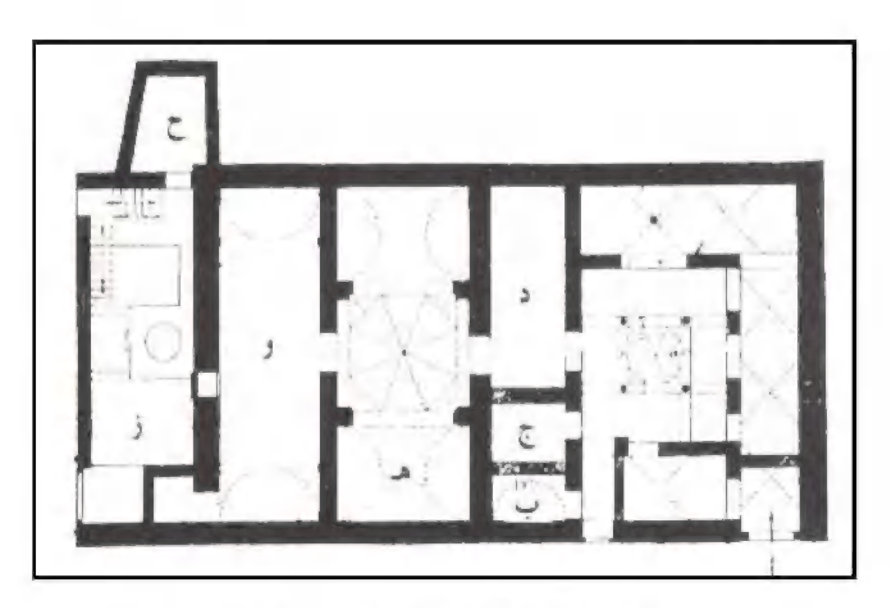
(المخطط ـ 8) حمام عشار الصغير في غرناطة



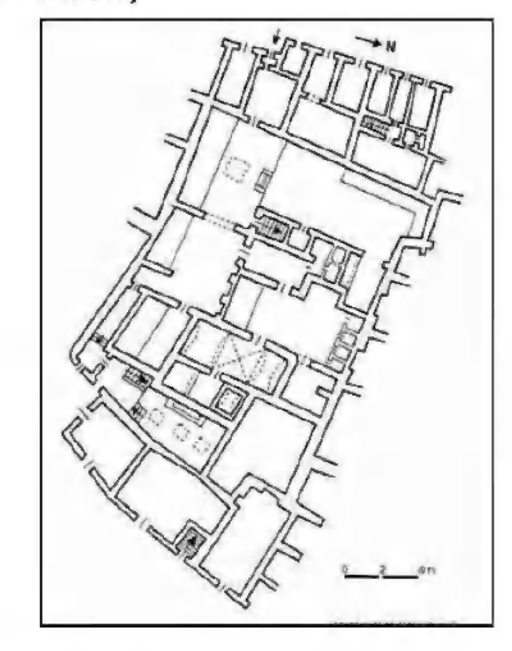
(المخطط ـ 9)
حمام اليهود في
بسطة بالأندلس
(المخطط ـ 10)
حمام ملاصق لبئر
أماجرو في
طليط





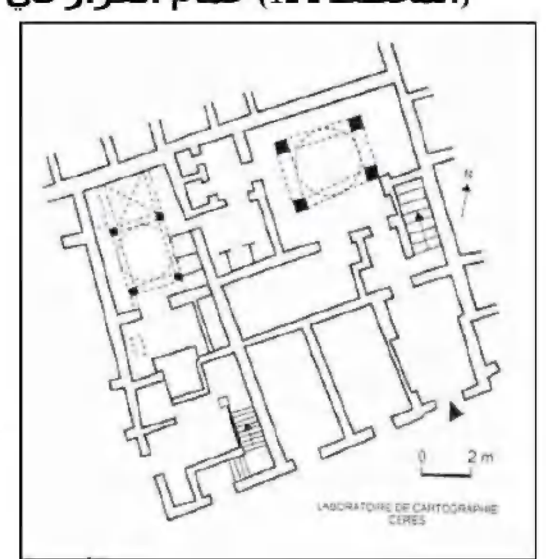


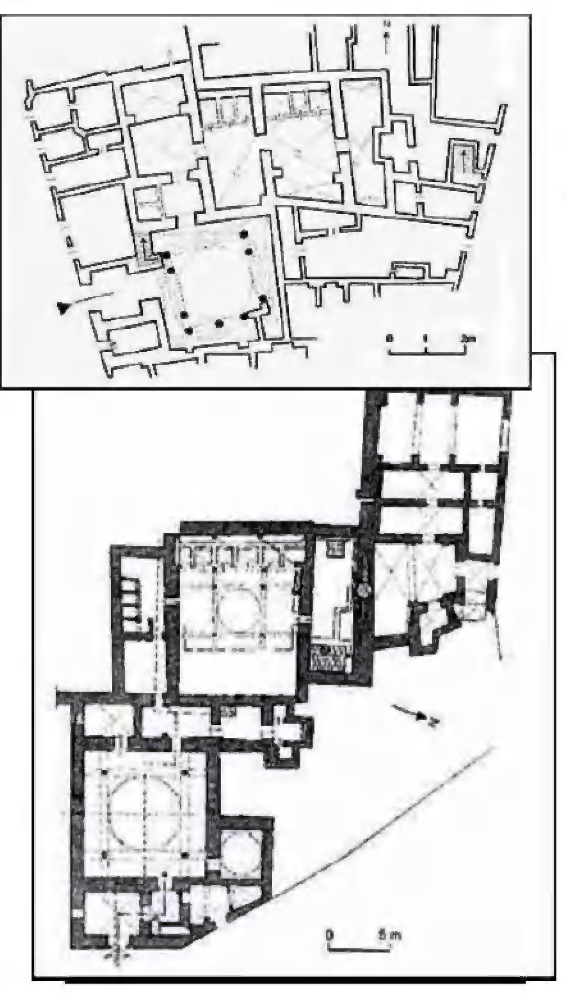
(المخطط ـ 11) حمام من المغرب



(المخطط ـ 12) حمام القرار في تونس

(المخطط - 13)
حمام الناعورة في تونس

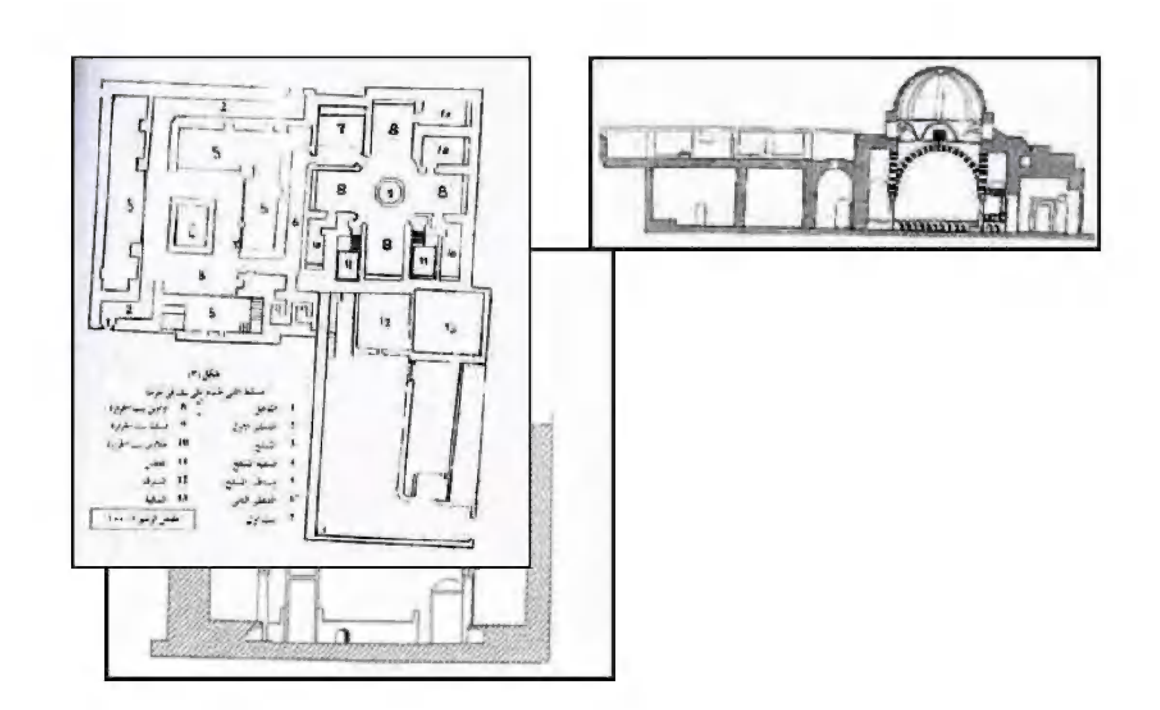




(المخطط - 14) حمام الذهب في تونس (المخطط - 15) حمام سيدي خلاف في تونس

(المخطط - 16) حمام القشاشين في تونس

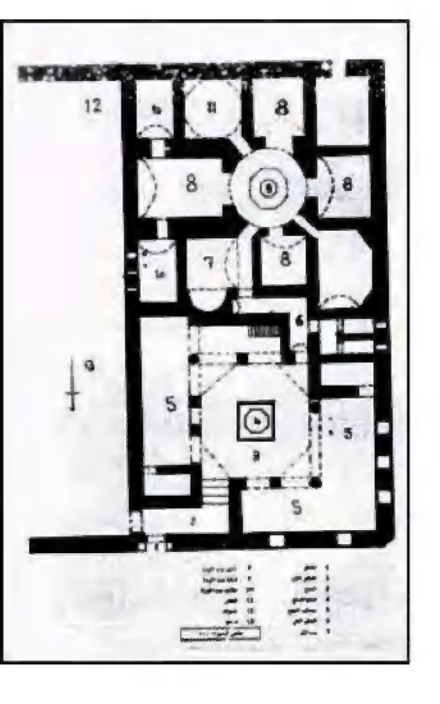
(المخطط - 17) حمام يوسف صاحب الطابع في تونس

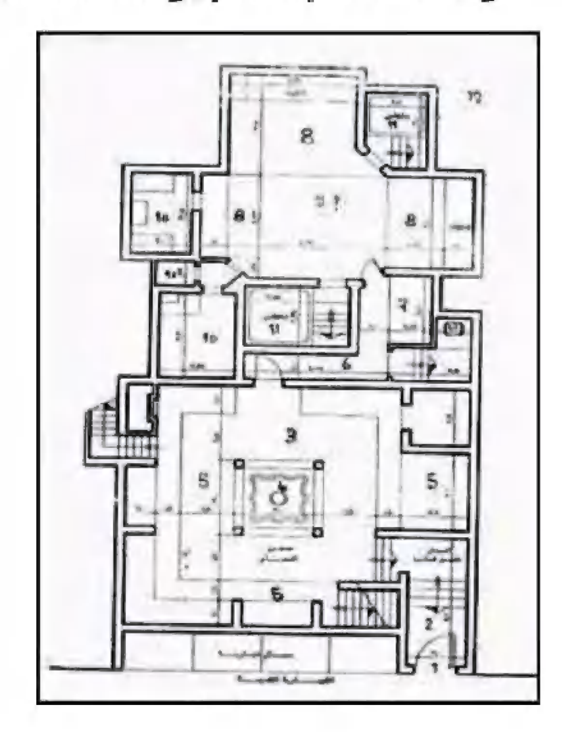




(المخطط - 19) حمام علي بيك في جرجا/ مصر

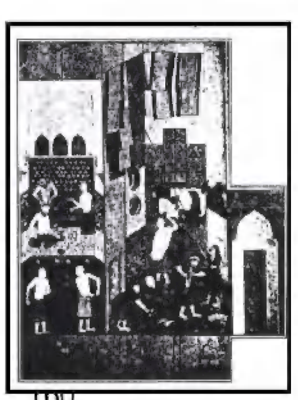
(المخطط - 18) مقاطع راسية للقاعتين الباردة والساخنة في حمام يوسف صاحب الطابع في تونس

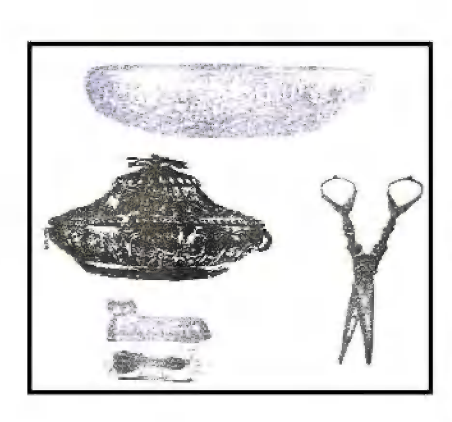




(المخطط - 20) حمام ثابت في أسيوط/ مصر

(المخطط - 21) حمام قنا/ مصر







(الصورة-1)
حمام في المنمنمات/عن (الصورة-2)
(الصورة-3)
حمام في المنمنمات/ عن أدوات زينة
خاصة بالحمام
(زكي محمد حسن) (زكي محمد حسن)





(الصورة-4) واجهة حمام درغوث
تصوير الباحث

(الصورة-5) المدخل الرئيسي

في حمام درغوث



(الصورة - 6) القبة فوق القاعة الباردة
في حمام درغوث(تصوير الباحث)

(الصورة-7) حنية في القاعة الباردة
في حمام درغوث



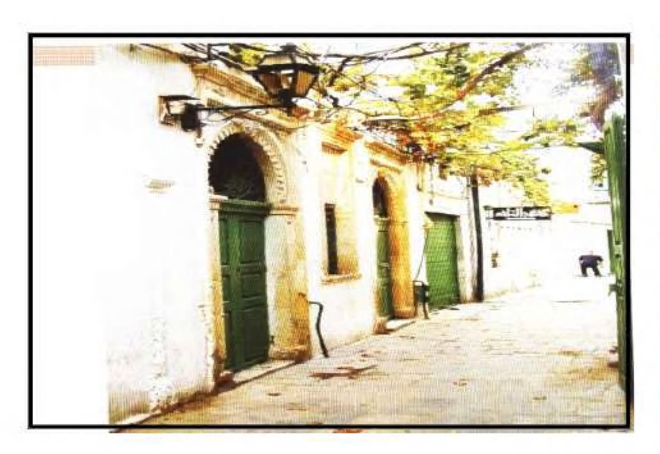


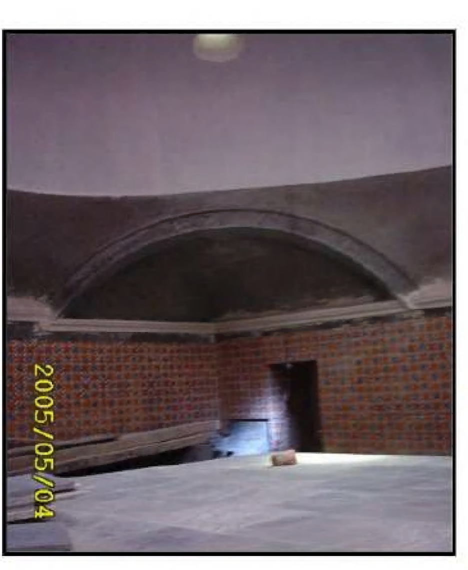
(الصورة ـ 8) شاذروان في القاعة
القاعة الساخنة

الباردة في حمام درغوث

(الصورة-9) القبة فوق

حمام درغوث







(الصورة-11) واجهة حمام الحلقة

(الصورة-10) حنية في القاعة
الساخنة في حمام درغوث

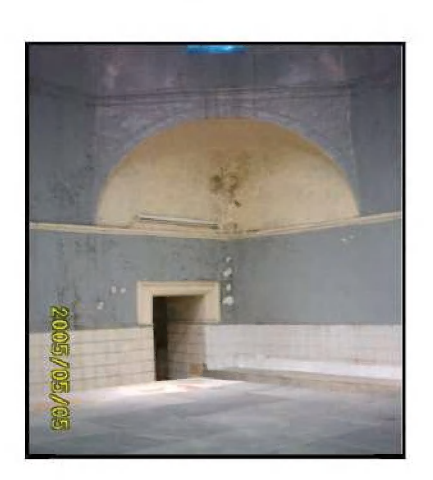




(الصورة-13) فسقية في

(الصورة-12) حنية في القاعة
حمام الحلقة

الباردة في حمام الحلقة





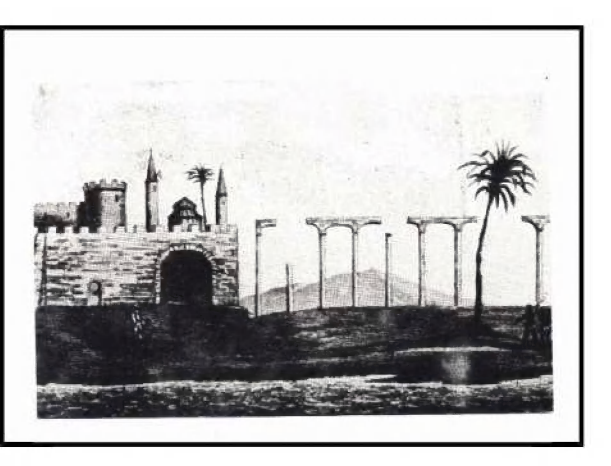
(الصورة-14) سدة في حمام الحلقة

(الصورة-15) القاعة الساخنة في

حمام الحلقة





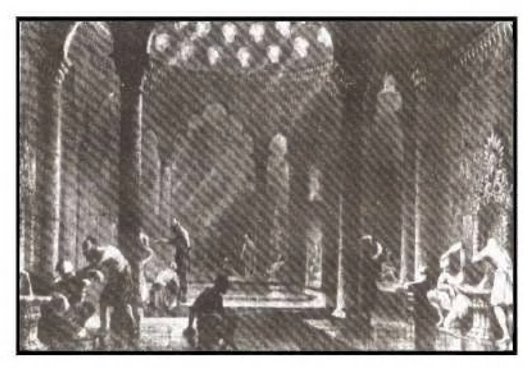


(الصورة-17) قناة لنقل المياه في مدينة طرابلس

(محمد مصطفى بازامه)

(الصورة-16) القدر القديم في حمام الحلقة



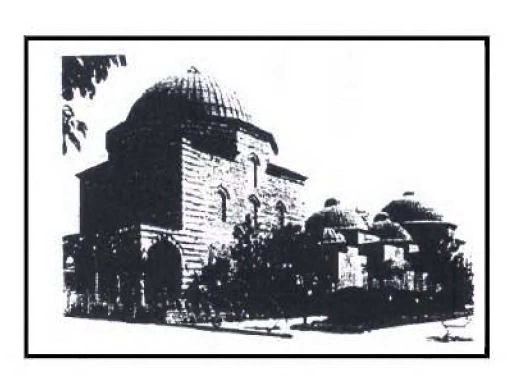


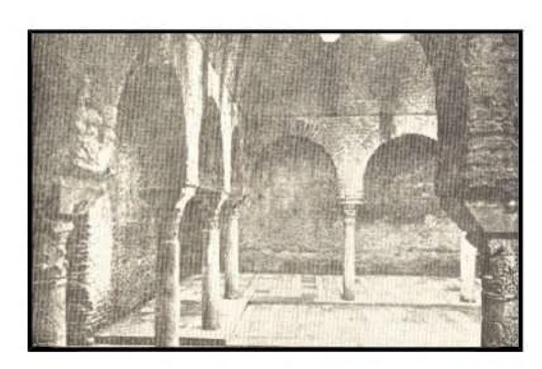
(الصورة-18) خزانات المياه في طرابلس/عن

(الصورة- 19) لوحة لحمام من استنبول/عن

(محمد مصطفى بازامه)

(عبد الرحيم غالب)





(الصورة-20) حمام الخاصكي في استنبول /عن

(الصورة-21) حمام عشار الصغير في غرناطة/ عن



(أصلان آبا) (مانويل مورينو)